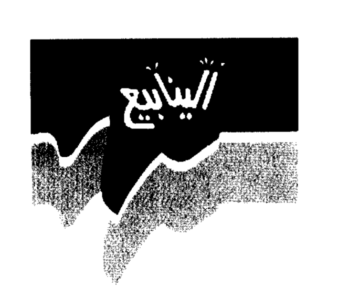
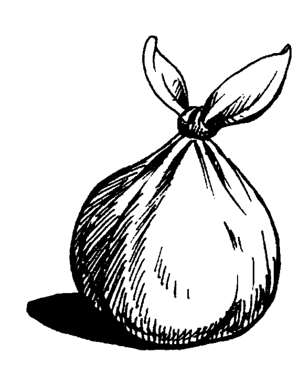


أميرة الحُسن والجَمال

الدكتور نبيل راغب





إشراف : وجدي رزق غالي

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من : شركة أبو الهول للنشر
٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٢٤٦١٦
١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت : ٤٩٢٤٨٣٩

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

رقم الايداع ٢٠٠٧/٥٩٥٨
الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ١٠٩٤ - ٥

رسوم : يوسف راغب

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

أميرَةُ الحُسن والجَمال

(١)

يُحْكى أَنَّهُ كانَ في قَديمِ الزَّمان، وسالف العَصْرِ والأَوان، مَلكٌ يُسَمّى عاصِمَ بْنَ صَفْوانَ، وكانَ مَلكًا سَخيًّا كَريمًا، صاحِبَ هَيْبَةٍ و وَقار. وقَدْ حَصَّنَ بلادَهُ بالقِلاعِ والـجُيوشِ، فَجَعَلَ أَعْداءَهُ يَعْمَلونَ لَهُ أَلْفَ حِساب. لَكِنْ لَيْسَ كُلُّ ما يَتَمَنّاهُ المَرْءُ يُدْرِكَهُ، فَقَدْ صارَ هَذا المَلِكُ شَيْخًا طاعِنًا في السِّنِّ، أَضْعَفَهُ الكِبَرُ والسَّقَمُ والهَرَمُ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرٌ ولا أُنْثى، مِمّا جَعَلَهُ في هَمٍّ وغَمٍّ لَيْلاً ونَهارًا.

ذاتَ يَوْمٍ كانَ جالِسًا عَلى كُرْسِيِّ مُلْكِه الـمَصْنوعِ مِنَ الذَّهَب، والـمُرَصَّعِ بِالـماسِ والياقوتِ والعَقيقِ والـمَرْجان، وقَدْ تَوَهَّجَ في ضَوْءِ الشُّموعِ وقَناديلِ الزَّيْتِ الذَّهَبِيَّةِ، في

حين جَلَسَ أَمامَهُ الأُمَراءُ والأَشْرافُ والوُزَراءُ وأَرْبابُ الدَّوْلَة في خدْمَته كَعادَتهِمْ. منْهُمْ مَنْ لَهُ ولَدٌ أَوْ ولَدان أَوْ أَكْثَرُ، فَقالَ في نَفْسه: « كُلُّ هؤُلاء مَسْرورونَ بِأَبْنائهِمْ، وأَنا ما لي ولَدٌ. غَدًا أَموتُ وأَتْرُكُ مُلْكِيَ وضياعِيَ وأَمْواليَ وبلاديَ يَأْخُذُها الغُرَباءُ، ولا يَبْقى لي ذِكْرٌ في الدُّنْيا بَعْدَ كُلِّ ما حَقَّقْتُهُ مِنْ أَمْجادٍ وانْتصاراتٍ.»

اسْتَغْرَقَ في بَحْرٍ مِنَ الأَفْكارِ والأَحْزانِ، مُحاولاً أَنْ يَتَماسَكَ أَمامَ رِجالِ حاشيَته الَّذينَ كانوا يَرْمُقونَهُ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ، وقَدْ رانَ عَلَيْهِمُ الصَّمْتُ الثَّقيلُ.

شَعَرَ وَزيرُهُ فارسُ بْنُ صالحٍ أَنَّ مزاجَ الـمَلكِ كانَ مُتعكِّرًا في ذَلكَ الـمَساء، فَتَساءَلَ في حَرَجٍ حاوَلَ أَنْ يَكْبِتَهُ: « إذا كانَ مَوْلايَ مُتْعَبًا هَذا الـمَساءَ، فَلْيَتَفَضَّلْ بِفَضِّ الـجَلْسَة طَلَبًا للرّاحَة!»

كانَ الملكُ عاصمُ بْنُ صَفْوانَ يُحبُّ ذَكاءَ وَزيره فارسِ ابْنِ صالحٍ، فَابْتَسَمَ لَهُ وهُوَ يَرْفَعُ يَدَهُ إيذانًا لَهُمْ

بالانْصِراف قائلاً: « فَلْنُؤَجِّلِ الـجَلْسَةَ إلى وَقْتٍ آخَرَ . »

نَهَضَ رِجالُ الحاشِيَةِ ثُمَّ انْحَنَوْا لتَحِيَّةِ الـمَلك وغادَروا القاعَةَ الَّتي لَمْ يَتَبَقَّ فيها سوى المَلك و وَزيرِه الَّذي سَأَلَ هامِسًا: « يا مَلِكَ الزَّمان، ما سَبَبُ كُلِّ هَذا الهَمِّ والغَمِّ في السَّنَواتِ الأَخيرَة ؟»

أَجابَ المَلِكُ ونَظَراتُهُ تَنْضَحُ بالانْكسار: « يا أَيُّها الوَزيرُ النّاصِحُ، خَلِّني بِهَمِّي وغَمِّي، فَالَّذي في قَلْبي مِنَ الأَحْزانِ والهُمومِ يَكْفيني !»

لَمْ يَصْمُت الوَزيرُ بَلْ واصَلَ حَديثَهُ بِحَرارَةٍ صادِقَة : « قُلْ لي أَيُّها الـمَلِكُ ما سَبَبُ هَذه الأَحْزانِ، لَعَلَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لَكَ الفَرَجَ عَلى يَدَيَّ !»

قالَ الـمَلِكُ : « عِشْتُ العُمْرَ كُلَّهُ عَلى أَمَلِ أَنْ أُنْجِبَ وَلَدًا يَحْمِلُ اسْمي، ويَرِثُني بَدَلاً مِنْ أَنْ يَسْتَوْلِيَ الغُرَباءُ عَلى مُلْكي. تَزَوَّجْتُ عِدَّةَ مَرّات، لَكِنَّ الأَمَلَ لَمْ يَتَحَقَّقْ، وكُنْتُ أُعَزّي نَفْسِيَ بِأَنَّكَ لَمْ تُنْجِبْ مِثْلي، أَيْ

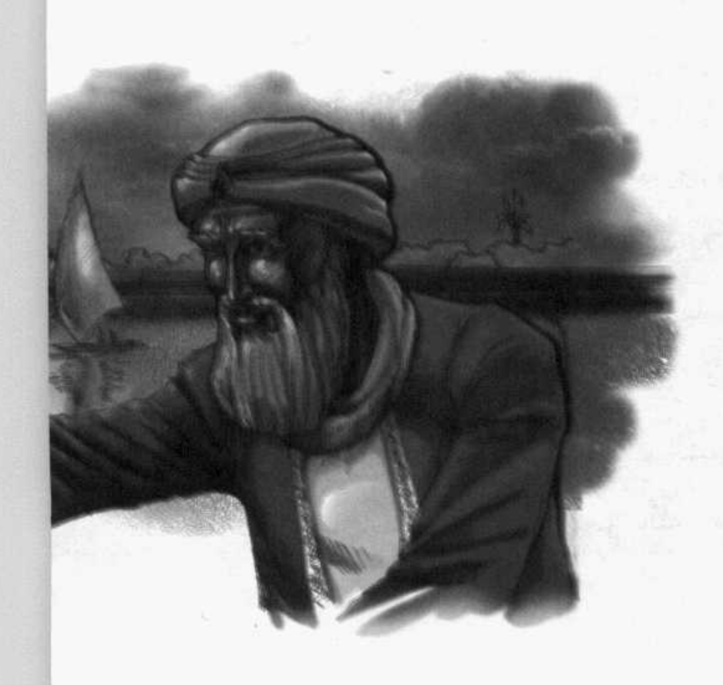
أَنَّني لَمْ أَكُن استثْناءً منْ قاعدَة عامَّة. لَكنْ عنْدَما حَملَتْ زَوْجَتُكَ وهيَ في هَذه السِّنِّ المُتَقَدِّمَة، برَغْم أَنَّكَ تَكْبُرُني بِسَنوات عَديدَة، أَدْرَكْتُ أَنَّ لَعْنَةَ العُقْمِ سَتَظَلُّ تُطارِدُني حَتّى آخرِ لحَظَة في حَياتي. إنَّ ما جَرى لَكَ هُوَ مُعْجزَةٌ بِكُلِّ المَقاييس، فَهَلْ يُنعِمُ اللَّهُ -سُبْحانَهُ وتَعالى- عَلَيَّ بِمِثْلِ هَذِه الـمُعْجزَة ؟»

بَدا الوَزيرُ مُتَرَدِّدًا للَحَظات ثُمَّ قالَ: « لَقَدْ وَضَعْتَ يَدَكَ يا مَوْلايَ عَلى سرِّ الـمُعْجِزَة عِنْدَما ذَكَرْتَ اللَّهَ سُبْحانَهُ وتَعالى .»

نَظَرَ الـمَلكُ إلى وَزيرِه نَظَرات مُتَسائلَةً وبَريقُها يَنْضَحُ بِالحَيْرَة، لَكنَّ الوَزيرَ سَرْعانَ ما قالَ : « مُنْذُ ثَلاثَة شُهور، يا مَوْلايَ،شَعَرْتُ بِضيقٍ يَكادُ يَكْتُمُ أَنْفاسيَ داخلَ صَدْري، ولَمْ أَجِدْ مَهْرَبًا مِنْهُ سِوى السَّيْرِ عَلى شاطئِ النَّهْرِ أَسْتَرْوِحُ نَسَمات الغُروب قَبْلَ مَغيب الشَّمْس. كُنْتُ قَدْ فَقَدْتُ الأَمَلَ تَمامًا في أَنْ يُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِوَلَد،

واجْتاحَني يَأْسٌ قاتِلٌ بِأَنَّ حَياتِي كُلَّها ضاعَتْ هَدَرًا، وفَجْأَةً وَجَدْتُ الشَّيْخَ إِبْراهيمَ الطَّيِّبَ يَجْلِسُ أَمامَ باب كوخه وقَدْ أَغْمَضَ عَيْنَيْه كَأَنَّهُ في سُبات عَميق. لَمْ أَشَأْ أَنْ أُزْعِجَهُ بِإلْقاءِ التَّحِيَّة، لَكِنَّني فوجِئْتُ بِه يَقولُ :« أَهْلاً بِسَعادَةِ الوَزيرِ ! لماذا لا تَسْتَريحُ بَعْضَ الوَقْتِ بِالجُلوسِ مَعِي وتَتَأَمَّلُ مَجْرى النَّهْرِ العَظيمِ ؟»

تَوَقَّفْتُ وعُدْتُ أَدْراجِي لأَرُدَّ عَلى كَلِماتِهِ الَّتي أَشاعَتِ



الرّاحَةَ داخلي: « أَيُّها الشَّيْخُ الـمَبْروكُ، أنا لَمْ أَسِرْ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ دَقائِقَ !»

فَتَحَ عَيْنَيْه بابْتِسامَةٍ حانيَةٍ كَسَتْ وَجْهَهُ ،وقالَ :« لَمْ أَقُلْ إنَّكَ تَعِبْتَ مِنَ السَّيْرِ! إنَّ مَصْدَرَ تَعَبِكَ يَكْمُنُ في التَّفْكيرِ الَّذي لا يَهْدَأُ لَحْظَةً واحِدَةً !»

شَعَرْتُ أَنَّ الشَّيْخَ يَقْرَأُ ما يَدورُ بِداخِلي،فقُلْتُ لَه : « إنَّ مَسْئوليّاتِ الحُكْمِ والسُّلْطَةِ هَمٌّ بِالنَّهارِ و غَمٌّ بِاللَّيْلِ!»



لَكِنَّهُ أَذْهَلَني عِنْدَما قالَ بِبَساطَةٍ شَديدَةٍ: « لَمْ أَقْصِد الـحُكْمَ والسُّلْطَةَ، وإِنَّما قَصَدْتُ نِعْمَةَ الذُّرِّيَّةِ الَّتي يُقِرُّ بِها اللَّهُ - سُبْحانَهُ وتَعالى - عُيونَ البَشَرِ !»

اعْتَدَلَ الـمَلِكُ عاصِمٌ في جِلْسَتِه وهُوَ يَتَحَسَّسُ لِحْيَتَهُ الشَّهْباءَ بِأَصابِعَ مُرْتَعِشَةٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يُحاوِلْ مُقاطَعَةَ وَزيرِه في حَديثِه الـمُتَدَفِّقِ: « لَمْ أَشْعُرْ إِلا وأنا أُسْرِعُ بِالـجُلوسِ عَلى قِطْعَةٍ مِنَ الـحَجَرِ إِلى جِوارِه، والشَّيْخُ يَضْرِبُ بِأَنامِلِه الـمَعْروقَةِ عَلى أَوْتارٍ مَشْدودَةٍ داخِلي، وكَلِماتُهُ تَتَسَلَّلُ داخِلَ صَدْري الـمُعْتِمِ بِبُقَعٍ مِنَ الضَّوْءِ السّاطِعِ : « إِنَّ مَنْ يَجْلِسونَ عَلى كَراسِيِّ الـحُكْمِ يَعْتادونَ إِصْدارَ الأَوامِرِ الَّتي سَرْعانَ ما تُنَفَّذُ، لَكِنَّها كُلُّها أُمورٌ دُنْيَوِيَّةٌ وبَشَرِيَّةٌ . أَمّا اللَّهُ -سُبْحانَهُ وتَعالى- فَإِنَّهُ لا يُصْدِرُ مِثْلَ هَذِه الأَوامِرِ الفانِيَةِ، بَلْ يُلَبّي طَلَبَةَ الإِنْسانِ إِذا دَعاهُ . ولَيْسَتْ هُناكَ ذُرِّيَّةٌ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ، وبَدَلاً مِنْ أَنْ يَحْمِلَ الإِنْسانُ الهَمَّ واليَأْسَ عَلى كَتِفَيْهِ حَتّى يَنوءَ بِهِما، فَلِماذا

لا يُصَلّي داعيًا اللَّهَ أَنْ يَبْسُطَ عَلَيْه رَحْمَتَهُ، وأَنْ يَمُنَّ عَلَيْه بما يَتَمَنّاهُ . فَلَيْسَتْ هُناكَ صِلَةٌ بَيْنَ اللَّهِ والإِنسانِ، أَعْظَمَ وأَرْوَعَ مِنَ الصَّلاة !»

واصَلَ الوَزيرُ حَديثَهُ في كَلمات مُمْتَزِجَة بأَنْفاسه الحارَّة: « كانَ لساني يَلْهَجُ بالدُّعاء بَعْدَ كُلِّ صَلاة، وشَعَرْتُ بِبَرْدِ الرّاحَة والسَّلامِ يَسْري في حَنايا كياني، وقَنِعْتُ بهَذا الإِحْساسِ الجَميلِ الَّذي طارَدَ فُلولَ الحِرْمان في عُروقي ! الحِرْمانُ الَّذي جَعَلَ مِنْ زَوْجَتي أَرْضًا قاحِلَةً سَرى فيها الجَفافُ بكُلِّ أَنْواعِ الشُّقوق ! وذاتَ صَباحٍ بَلَّلَتْهُ قَطَراتُ النَّدى، وتَمايَلَتْ زُهورُهُ مَعَ نَسَماته العَطِرَة. لَمْ تَسْتَطِعْ زَوْجَتي أَنْ تَكْتُمَ السِّرَّ الَّذي لَمَحْتُهُ في بَريق عَيْنَيْها قَبْلَ ذَلكَ بأَيّامٍ، وصارَحَتْني والدُّموعُ تَتَرَقْرَقُ عَلَى وَجْنَتَيْها بأَنَّ اللَّهَ -سُبْحانَهُ وتَعالى- قَدْ مَنَّ عَلَيْها بِطِفْلٍ في أَحْشائها !»

صاحَ المَلِكُ مُهَلِّلاً وقَدِ انْزاحَتْ غِشاوَةُ الهَمِّ والغَمِّ

عَنْ وَجْهِهِ: « ونِعْمَ بِاللَّهِ ! إِنَّهُ قادِرٌ عَلى كُلِّ شَيْءٍ، وإِلَيْهِ المَصِيرُ . »

(٢)

كانَتْ زَوْجَةُ الـمَلِك جالسةً في يَوْمٍ منَ الأَيّامِ ولسانُها يَلْهَجُ بِشُكْرِ اللّه وحَمْده، بَعْدَ أَن انْزاحَ الهَمُّ والغَمُّ عَنْ قَلْبِ زَوْجِها الّذي عادَ إِلَيْه البِشْرُ والطُّمَأْنِينَةُ. وفيما هِيَ تُفَكِّرُ بِخُشوعٍ في عَظَمَةِ اللّه وروْعَة التَّسْليمِ بِإِرادَته، شَعَرَتْ بِتَحَرُّك الـجَنِين في بَطْنِها، فَعَلِمَتْ أَنَّها حاملٌ. غَرِقَتْ بَيْنَ طَيّاتِ النَّشْوَة وأَمْواجِها، وهِيَ تَجِدُ نَفْسَها تُنادي عَلى جارِيَتِها الـمُفَضَّلَة وتَأْمُرُها بِنَبَراتٍ مُتَقَطِّعَة: « اذْهَبي إلى الـمَلِك وقولي لَهُ: يا مَلِكَ الزَّمانِ أُبَشِّرُكَ بِأَنَّ سَيِّدَتي ظَهَرَ حَمْلُها بَعْدَ طولِ انْتِظارٍ، وقَدْ تَحَرَّكَ الـجَنِينُ في بَطْنِها ! »

لَمْ تُصَدِّق الجارِيَةُ أُذُنَيْها، وانْطَلَقَتْ كَالسَّهْمِ في مَمَرّاتِ القَصْرِ وبَيْنَ رَدَهاتِه، ثُمَّ خَرَجَتْ إلى حَديقَتِه

الفَيْحاء لتَجدَ مَوْلاها جالسًا وقَد افْتَرَشَت ابْتسامةُ الرِّضا وَجْهَهُ وهُوَ يُتابعُ أَلْوانَ الفَراشات الَّتي حامَتْ حَوْلَ الزُّهور كَأَنَّها تَرْقُصُ مَعَ هبّات النَّسيم النَّديِّ. انْحَنَتْ أَمامَهُ لاهثَةً وهيَ تُخْبرُهُ بأَنَّ زَوْجَتَهُ حاملٌ. قَفَزَ الـمَلكُ واقفًا كَطفْلٍ لا يَعْرفُ ماذا يَقولُ، ومَعَهُ وَزيرُهُ الَّذي أَخْرَجَهُ منْ دُوّامَة النَّشْوَة بصَوْت هامسٍ ناضحٍ بحَمْد اللَّه: « إنَّ اللَّهَ -تَبارَكَ وتَعالى- أَنْعَمَ عَلَيْنا بفَضْله وإحْسانه، و جوده و منّته، بَعْدَ أَنْ أَخْرَجَنا منَ الظُّلُمات إلى النّور!»

سارَ الـمَلكُ بخُطُوات خَفيفَة لا تكادُ تَمَسُّ عُشْبَ البُسْتان، ثُمَّ الْتَفَتَ إلى وَزيره قائلاً منْ بَيْن طَيّات نَشْوَته: « أُريدُ أَنْ أُرَفِّهَ عَنِ النّاسِ وأُفْرحَ قُلوبَهُمْ ! فَلْيَتمَّ الإفْراجُ عَنْ كُلِّ مَنْ في الـحَبْسِ إذا كانَ حَسَنَ السَّيْرِ والسُّلوك، ومَنْ كانَتْ عَلَيْهِمْ دُيونٌ فإنَّ بَيْتَ الـمَال يَرُدُّها نيابَةً عَنْهُمْ ! ولْيُرْفَعِ الـخَراجُ عَنِ النّاسِ ثَلاثَ سَنوات،

ويُنْصَبْ في سائرِ المَدينَة مَطْبَخٌ حَوْلَ جُدْرانها، ليَطْبُخَ الطُّهاةُ سائرَ أَنْواعِ الطَّعامِ باللَّيْلِ والنَّهار، والنّاسُ في الـمَدينَة وما حَوْلَها منَ البلاد البَعيدَة والقَريبَة، يَأْكُلونَ وَيَشْرَبونَ ويَحْملونَ الطَّعامَ إلى بُيوتهمْ . كَما تُزَيَّنُ المدينَةُ سَبْعَةَ أَيّامٍ، ولا تُغْلقْ حَوانيتُها لَيْلاً أَوْ نَهارًا . »

نامَ النّاسُ واسْتَيْقَظوا في بَهْجَة وانْشراحٍ، وأَكَلوا وشَربوا ولَعبوا، وأَلْسنَتُهُمْ تَلْهَجُ بِحَمْد اللَّه الَّذي مَنَّ عَلى الْـمَمْلَكَة بوَليِّ العَهْد. وكانَ فَرَحُ الوَزيرِ مثْلَ بَحْرٍ مُتَلاطمِ الأَمْواجِ عنْدَما انْتَهَتْ أَيّامُ حَمْلِ زَوْجَته ، و وَضَعَتْ طفْلاً مُضيئًا كَالمصْباحِ فَسَمّاهُ ساعدًا، داعيًا اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَهُ ساعدَهُ الأَيْمَنَ في سِنِي شَيْخوخَته .

وبَلَغَت اللَّيالي الـملاحُ قمَّتَها عنْدَما وَضَعَتْ زَوْجَةُ الـمَلك طفلاً ساطعًا كَالبَدْرِ في لَيْلَة تَمامه، فَسَمّاهُ سَيْفَ المُلوك.

وكَبرَ الغُلامانِ: سَيْفُ الـمُلوكِ وساعدٌ في أُخُوَّةٍ

حَميمَة وحُبٍّ جارِف حَتّى صارَ عُمْرُ كُلٍّ مِنْهُما عِشْرينَ سَنَةً. وكانَ الـمَلِكُ والوَزيرُ يُتابِعان نُمُوَّهُما بِعَيْنٍ قَريرَة ورِعايَة كامِلَة إلى أَنْ بَلَغا هَذه السِّنَّ، فَدَعا الـمَلِكُ وَزيرَهُ وقالَ لَهُ: « خَطَرَ ببالي أَمْرٌ أُريدُ أَنْ أَسْتَشيرَكَ فيه، وذَلِكَ أَنّي صِرْتُ شَيْخًا هَرِمًا، وطَعَنْتُ في السِّنِّ، وبَلَغْتُ مِنَ العُمْرِ أَرْذَلَهُ، وأُريدُ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنْ أَعْباء الـحُكْمِ ومُشْكلاته، وأُعْطيَ مُلْكيَ وسَلْطَنَتيَ لِوَلَدي سَيْف الـمُلوك، بَعْدَ أَنْ صارَ شابّا مَليحًا كامِلَ الفُروسيَّةِ والعَقْلِ والأَدَب، فَما رَأْيُكَ ؟»

« نِعْمَ الرَّأْيُ الَّذي رَأَيْتَهُ، وهُوَ رَأْيٌ مُبارَكٌ سَعيدٌ، وإذا فَعَلْتَ أَنْتَ هَذا فَأَنا أَجْعَلُ وَلَدي وَزيرًا لَهُ، وهُوَ شابٌّ مَليحٌ ذو مَعْرِفَةٍ ورَأْيٍ وبَصيرَةٍ. هَذا بَعْدَ إِذْنِكَ بِالطَّبْعِ !»

« لَكَ مُوافَقَتي ومُبارَكَتي، وخَيْرُ البِرِّ عاجِلُهُ. اُكْتُبْ إلى جَميعِ الأَقاليمِ والبِلادِ الَّتي تَحْتَ أَيْدينا، ومُرْ أَكابِرَها بِالـحُضورِ في مَيْدانِ الفيلِ بِحُلولِ الرّابِعِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ

القادِمِ .»

نَهَضَ الوزيرُ قائِلاً :« سَمْعًا وطاعَةً ، يا مَوْلايَ . ويَبْدو .. ويَبْدو ..»

قاطَعَهُ الـمَلِكُ في حَسْمٍ مُتَسائِلاً :«هَلْ هُناكَ ما تُخْفيهِ عَنّي ؟»

« بِالطَّبْعِ لا .. لَكِنْ يَبْدو أَنَّ الـحُلْمَ الَّذي انْتابَني فَجْرَ هَذا اليَوْمِ لَهُ صِلَةٌ بِقَرارِكَ الآنَ !»

« وماذا كانَ الـحُلْمُ ؟ فَإِنَّ أَحْلامَكَ نادِرًا ما تَخيبُ !»

« زارَني الشَّيْخُ إِبْراهيمُ الطَّيِّبُ في الـمَنامِ وطَلَبَ مِنّي زِيارَتَنا لأَنَّ لَدَيْهِ أَمانَةً يُريدُ تَوْصيلَها لِلْمَلِكِ الـجَديدِ سَيْفِ الـمُلوكِ .»

« حُلْمٌ عَجيبٌ لِلْغايَةِ ! وما هِيَ الأَمانَةُ الَّتي لَدى هَذا الشَّيْخِ الطَّيِّبِ الَّذي لا يَمْلِكُ في هَذِهِ الدُّنْيا سوى الـحِكْمَةِ والنَّظْرَةِ الثّاقِبَةِ والبَرَكَةِ والـحِرْصِ عَلى صِلَتِهِ

الوَثِيقَة بِاللَّه سُبْحانَهُ وتَعالى ؟»

« وهَلْ هُناك أَمانَةٌ أَوْ ثَرْوَةٌ أَثْمَنُ مِنْ ذَلِكَ ؟»

« عُموماً نَحْنُ مُقَصِّرونَ في حَقِّ هَذا الشَّيْخِ الـمَبْروكِ الَّذي نِلْنا عَلى يَدَيْه أَجْمَلَ بُشْرى في حَياتنا ! أُريدُهُ في مُقَدِّمَةِ المَدْعُوّينَ في حَفْلِ تَنْصيبِ ابْننا مَلِكًا .»

« رُبَّما دَفَعَهُ زُهْدُهُ وتَقَشُّفُهُ وتَصَوُّفُهُ إلى التَّمَلُّصِ مِنْ مَعيَّةِ أَكابِرِ القَوْمِ بثِيابِهِمْ وحُلَلِهِمْ وجَواهِرِهِمْ وخُيولِهِمُ الـمُطَهَّمَةِ وعَرَباتِهِمُ الـمُذَهَّبَةِ .»

« ستَذْهَبُ بِنَفْسِكَ لإحْضارِه صَبيحَةَ يَوْمِ الاحْتِفالِ حتّى تَعُمَّ بَرَكَتُهُ جَميعَ الـحاضِرينَ .»

(٣)

ازْدانَت الـمَدينَةُ بكُلِّ بَيارِقِها الـمُرَفْرِفَةِ، وعَزَفَت الفِرَقُ الـمُوسيقِيَّةُ، والْتَفَّ الكِبارُ والصِّغارُ بِمَلابِسِهِمُ الزّاهِيَةِ اللامِعَةِ في دَوائِرَ حَوْلَ الـحُواةِ الَّذينَ تَنافَسوا في

تَقْـديمِ أَلْعـابِهِمْ وعُـروضِهِمْ. لَكِـنْ سَرْعـانَ مـا سَكَنَ الضَّجيجُ، عِنْدَما بَرَزَ مِنْ بَوّابَةِ القَـصْرِ الـمَرْمَرِيَّةِ الأُمَراءُ والأَشْـرافُ والوُزَراءُ وأَصْحـابُ الأَقـاليمِ والضِّيـاعِ وفي مُقَدِّمَتِهِمُ الـمَلِكُ وقَدْ أَمْسَكَ بِيُمْناهُ الشَّيْخُ إبْراهيمُ الطَّيِّبُ الَّذي سارَ بِعَباءَتِهِ الـمُتَواضِعَـةِ وعِمامَتِهِ الَّتي بَهَتَ لَوْنُها، في حينِ سارَ الوَزيرُ فارِسُ بْنُ صالِحٍ إلى يَسارِهِ، ومَعَهُمْ سَيْفُ الـمُلوكِ وساعِدٌ.

بَلَغـوا التَّخْتَ الكَـبيـرَ الَّذي يَجْلِسُ عَلَيْـهِ الـمَلِكُ في الأَعْيـادِ، فَتَأَلَّقَ في صَدارَةِ مَـيْدانِ الفيلِ عِنْدَما اعْـتَلاهُ الـمَلِكُ لِيَجْلِسَ إلى جِوارِهِ وَلِيُّ عَهْدِهِ سَيْفُ الـمُلوكِ ثُمَّ وَزيرُهُ وابْنُهُ ساعِدٌ، والشَّيْخُ إبْـراهيمُ الطَّيِّبُ. وسَرْعانَ ما امْتَلأَتْ مَـقاعِدُ الصَّفِّ الثّاني بِكِبـارِ رِجالِ الدَّوْلَةِ وعِلْيَةِ القَوْمِ.

دَوَّت الهُتافاتُ بِحَيـاةِ الـمَلِكِ وَ وَلِيِّ عَهْدِهِ في حَرارَةٍ وحَيَـوِيَّةٍ وبَهْجَـةٍ،لَمْ تُصِبْ بِعَدْواها الوَهَنَ الَّذي افْـتَرَشَ

وَجْهَ الشَّيْخِ إبْراهيمَ، ولَمْ تَطْرُد الذُّبولَ النّاضِحَ منْ عَيْنَيْه الخابِيَتَيْنِ، وَسْطَ التَّجاعيدِ الَّتي لَمْ تَرْحَمْ بَشَرَتَهُ الجافَّةَ الرَّقيقَةَ.

وكانَ المَلكُ يَسْتَرِقُ النَّظَرَ إلَيْه منْ طَرْف خَفِيٍّ مُسائلاً نَفْسَهُ في حَيْرَةٍ عَنِ الأَمانَة الَّتي أَحْضَرَها مَعَهُ في صُرَّةٍ منْ قُماشٍ قَديمٍ سَميك، وتَرَكَها في القَصْرِ دونَ فَتْحها لأَنَّ الوَقْتَ لَمْ يَسْمَحْ بِذَلكَ.

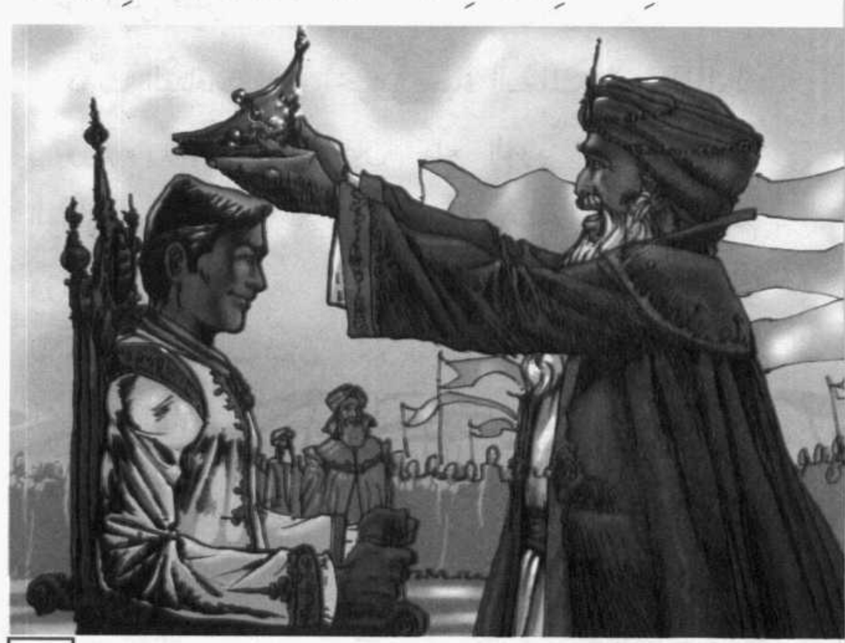
وبِمُجَرَّد اسْتقْرار الجَميعِ في مَراتبهِمْ خَلْفَ التَّخْتِ الكَبيرِ ، أَمَرَ المَلكُ بأَنْ يُمَدَّ السِّماطُ لَهُمْ بكُلِّ أَطايبِ الطَّعامِ، فَأَكَلوا هَنيئًا وَشَرِبُوا مَريئًا وَدَعَوْا لَهُ. ثُمَّ أَمَرَ الحُجّابَ أَنْ يُنادوا في النّاسِ بأَلا يَنْصَرِفَ أَحَدٌ حَتّى يَعْرِفَ الجَميعُ السَّبَبَ في عَقْد هَذا الاحْتفال الكَبيرِ . وَعنْدَما رانَ الصَّمْتُ، وَقَفَ المَلكُ لِيَقُولَ لَهُمْ :

« أَيُّها الأُمَراءُ والوُزَراءُ وأَرْبابُ الدَّوْلَة، كَبيرُكُمْ وصَغيرُكُمْ، أَنْتُمْ تَعْلَمونَ أَنّي قَدْ وَرِثْتُ المُلْكَ عَنْ آبائي

وأَجْدادي، وأَنْتُمْ تَشْهَدونَ بِأَنْفُسِكُمْ كَمْ بَذَلْتُ أَقْصى ما في وُسْعِي حتّى بَلَغْتُ هَذه الـمكانَةَ الأَثيرَةَ بَيْنَ مَمالك الأَرْضِ. والآنَ صرْتُ شَيْخًا هَرِمًا عاجزًا، وأُريدُ أَنْ أَتَخَلَّصَ منْ مَسْئوليّات الـحُكْم وأَعْباء السِّياسَة، وهَذا وَلَدي سَيْفُ الـمُلوك، وكُلُّكُمْ يَعْرِفُ أَنَّهُ شابٌّ مَليحٌ فَصيحٌ خَبيرٌ بالأُمور، عاقلٌ فاضلٌ عادلٌ. وأُريدُ في هَذه السّاعَة أَنْ أُنَصِّبَهُ مَلِكًا عَلَيْكُمْ بَدلاً مِنّي، لِيَحْكُمَ بَيْنَكُمْ بِالعَدْلِ.»



عِنْدَئِذ نَهَضَ سَيْفُ الـمُلوك واقفًا، فَانْحَنى لَهُ جَميعُ الواقفينَ، ومَنْ كانَ جالسًا أَسْرَعَ بِالوُقوفِ والانْحناء والتَّحيَّة، ثُمَّ دوّى الهُتافُ بِحَياة الـمَلك الـجَديد، وتَرَدَّدَ صَداهُ بَيْنَ جَنَبات المَيْدان، في حين نَزَلَ الـمَلكُ عاصمُ ابْنُ صَفْوانَ عَنِ التَّخْتِ الكَبيرِ وأَجْلَسَ ابْنَهُ عَلَيْه، ثُمَّ وَضَعَ التّاجَ عَلى رأْسه، وشَدَّ وَسَطَهُ بِمنْطَقَة الـمُلْك، ثُمَّ جَلَسَ عَلى كُرْسيٍّ بِجانبه، في حين نَثَرَ الـمَلكُ الـجَديدُ العُمْلاتِ الذَّهَبيَّةَ و الفِضيَّةَ عَلى رُؤوس الحاضِرينَ ،



وانْهَمَكَ أَبوهُ في تَوْزيعِ الـخُلَعِ والهَدايا عَلَيْهِمْ .

وعِنْدَما تَمَّ نَثْرُ الذَّهَبِ والفضَّة، وتَوْزيعُ الـخُلَعِ والهَدايا، عادَ السُّكونُ مَرَّةً أُخْرى لِيَنْهَضَ الوَزيرُ فارِسٌ قائلاً بِأَعْلى صَوْتِه: « أَنْتُمْ تَعْرِفونَ أَنّي أَقومُ بِالوِزارَةِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَوَلّى الـمَلَكُ عاصِمٌ عَلَيْكُمْ. وما دامَ قَدْ خَلَعَ نَفْسَهُ و وَلّى وَلَدَهُ سَيْفَ الـمُلوك بَدَلاً مِنْهُ، فَأَنا الآنَ أَخْلَعُ نَفْسي مِنَ الوِزارَةِ، لِيَحُلَّ مَحَلّي فيها ابْني ساعِدٌ، وهُوَ عاقِلٌ فَطِنٌ خَبيرٌ .»

دَوَّتِ الهُتافاتُ مَرَّةً أُخْرى بِحَياةِ الـمَلَك سَيْفِ الْمُلوك و وَزيرِهِ ساعد، في حينِ خَلَعَ الوَزيرُ فارِسٌ عِمامَةَ الوِزارَةِ و وَضَعَها عَلى رَأْسِ وَلَدِه ساعد، كَما وَضَعَ دَواةَ الوِزارَةِ قُدّامَهُ. ثُمَّ قامَ الـمَلَكُ عاصِمٌ والوَزيرُ فارِسٌ وكَتَبا الـمَراسيمَ بِعَلامَةِ سَيْفِ الـمُلوك وعَلامَةِ الوَزيرِ ساعد. وكانَ أَوَّلُ مَرْسومٍ أَنْ تَسْتَمِرَّ الأَفْراحُ في الْمَدينَةِ أُسْبوعًا، عَلى أَنْ يُسافِرَ حُكّامُ الأَقاليمِ إلى مُدُنِهِمْ

لإقامَتِها فيها.

أَخَذَ الـمَلِكُ عاصِمٌ ابْنَهُ سَيْفَ الـمُلوكِ، وساعِدًا وَزيرَهُ إلى القَصْرِ، وسارَ مَعَهُمُ الوَزيرُ فارِسٌ والشَّيْخُ إبْراهيمُ الطَّيِّبُ الَّذي كانَ يَلْتَقِطُ أَنْفاسَهُ بِصُعوبَةٍ كَيْ يَلْحَقَ بِهِمْ عَلى الدَّرَجاتِ الـمَرْمَرِيَّةِ. وفي البَهْوِ الذَّهَبِيِّ الكَبيرِ اسْتَوَوْا جالِسينَ عَلى الأَرائِكِ الـحَريرِيَّةِ، حَيْثُ أَحْضَرَ الـخازِنْدارُ الخاتَمَ والسَّيْفَ، لِيَأْخُذَ سَيْفُ الـمُلوكِ الـخاتَمَ، ويَأْخُذَ ساعِدٌ السَّيْفَ. وبَعْدَ ذَلِكَ أَتى الـخازِنْدارُ بِالصُّرَّةِ لِيَضَعَها أَمامَ سَيْفِ الـمُلوكِ، ثُمَّ انْحَنى وانْسَحَبَ لِيَعودَ أَدْراجَهُ ويَخْتَفِيَ. عِنْدَئِذٍ خاطَبَ الـمَلِكُ عاصِمٌ الشَّيْخَ إبْراهيمَ ضاحِكًا: «آنَ الأَوانُ لِيَعْرِفَ الأَمانَةَ الَّتي تَحْتَوي عَلَيْها الصُّرَّةُ!»

خَرَجَتْ كَلِماتُ الشَّيْخِ إبْراهيمَ مِنْ فَمِهِ خافِتَةً مُرْتَعِشَةً: «إنَّ ما بِداخِلِها هُوَ الدَّليلُ الأَمينُ لِحُكْمِ البِلادِ. إنَّ أَبْناءَ الـمُلوكِ لا يَعْرِفونَ سِوى التَّدْليلِ

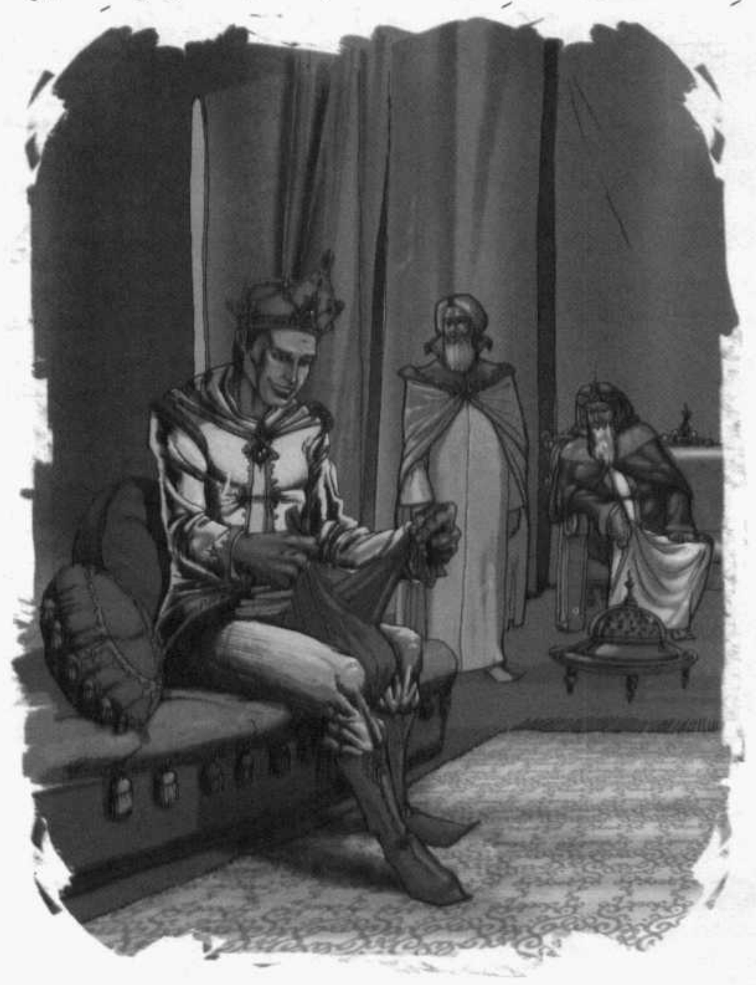
والـحُصول عَلى كُلِّ ما يَرْغَبونَ فيه دونَ أَيَّة عَقَبَة تَقفُ في طَريقهِمْ، ويَنْسَوْنَ تَمامًا أَنَّ الـمَرْءَ لا يُدْرِكُ كُلَّ ما يَتَمنّاه، فَهَذه هيَ طَبيعَةُ الـحَياة وقَدَرُها. والـمَلكُ في النِّهايَة بَشَرٌ لا يَنْطَبِقُ عَلَيْه ما يَنْطَبِقُ عَلى كُلِّ البَشَرِ، ولَوْ أَصَرَّ عَلى تَحْقيق الـمُسْتَحيل، فَإِنَّهُ لَنْ يَدْفَعَ الثَّمَنَ بِمُفْرَدِه، وإِنَّما سَيَدْفَعُهُ شَعْبُهُ كُلُّهُ دونَ ذَنْبٍ جَناهُ.»

سادَ سُكونٌ قَلقٌ عَلى أَثَرِ هَذه الكَلمات الشّائكَة، لَكنِ الـمَلكُ عاصِمٌ قَطَعَهُ مُحاولاً التَّظاهُرَ بروحِ الدُّعابَة: «لَمْ أَعْرِفْ أَنَّ الشَّيْخَ الطَّيِّبَ سِياسِيٌّ مُحَنَّكٌ. لَكنَّ الدَّليلَ الأَمينَ لِحُكْمِ البِلادِ يوجَدُ في الصَّحائفِ والأَوْراقِ ولَيْسَ في صُرَّةٍ!»

«هَذا هُوَ كُلُّ ما أَسْتَطيعُ قَوْلَهُ، واسْمَحوا لي أَنْ أَعودَ إِلى كوخي لأَسْتَريحَ هُناكَ.»

صاحَ الـمَلكُ: «لَيْسَ قَبْلَ أَنْ نَفْتَحَ الصُّرَّةَ ونَعْرِفَ ما بِها! افْتَحْها، يا سَيْفُ!»

تَرَدَّدَ سَيْفُ الـمُلوك للَحَظات، ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ وأَمْسَكَ بها
لِيَضَعَها على ساقَيْهِ و يَفُكَّ عُقْدَتَهَا ، و قَدْ تَرَكَّزَتِ العُيونُ



عَلَيْها. دَسَّ يَدَهُ داخلَها لِيُخْرِجَ عَباءَةً فضيَّةً، عَلَيْها صورَةٌ مَنْقوشَةٌ بالذَّهَب لِفَتاة جَمالُها هُوَ السِّحْرُ بِعَيْنِه .
ظَلَّ سَيْفُ الـمُلوك يُحَمْلِقُ فيها بعَيْنَيْنِ جاحظَتَيْنِ مَبْهورَتَيْنِ بلا حُدود، وأَبوهُ يُتابعُهُ ؛ ثُمَّ انْتَفَضَ واقفًا، ومَدَّ ذراعَهُ في ثَنايا الصُّرَّة لَكنَّهُ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا، ثُمَّ جَذَبَ العَباءَةَ الفضيَّةَ منْ يَد ابْنه وفَتَّشَها جيِّدًا فَلَمْ يجدْ شَيْئًا .
تَفَحَّصَ الصّورَةَ الذَّهَبيَّةَ لِلْفَتاة الـجَميلَة السّاحرَة ثُمَّ ابْتَسَمَ ابْتسامَةً عَريضَةً وانْفَجَرَ ضاحكًا في سُخْرِيَة :« لَمْ أَجدْ دَليلاً أَجْمَلَ منْ هَذا لحُكْمِ البلاد !! ومَنْ تكونُ هَذه السّاحرَةُ الـخَلابَةُ الَّتي سَتُعَلِّمُ الـمَلكَ سَيْفَ الـمُلوك كَيْفَ يَحْكُمُ البِلادَ ؟ أَمْ أَنَّها مُجَرَّدُ صورَةٍ لِفَتاةٍ وَهْميَّةٍ ؟!»

تَحامَلَ الشَّيْخُ إِبْراهيمُ عَلى نَفْسه ونَهَضَ لِيَقولَ بِالنَّبَرات الـمُرْتَعشَة نَفْسها:« إِنَّها أَميرَةُ الـحُسْنِ والـجَمالِ، ابْنَةُ مَلك بابِلَ !»

« وكَيْفَ جاءَتْكَ هَذه العَباءَةُ الفاخِرَةُ ؟ مَنْ قالَ لَكَ إنَّ هَذه هِيَ صورَتُها ؟ ولماذا كانَتْ هَذه الهَدِيَّةُ لابْني سَيْف الـمُلوك بِالذّات ؟ أَ يُمْكِنُ أَنْ تكونَ مُؤامَرَةً خَفِيَّةً أَوْ خَبيثَةً ضِدَّ بِلادِنا ؟»

« الأَمْرُ في مُنْتَهى البَساطَة يا مَوْلايَ ؛ فَلَيْسَ هُناكَ أَسْهَلُ مِنْ إِلْقاءِ العَباءَةِ في النّارِ وحَرْقِها في لحَظاتٍ. »

« الـمُشْكلَةُ لَيْسَتْ في العَباءَةِ، ولَكِنْ في أَسْئِلَتي حَوْلَها الَّتي لَمْ تُجِبْني عَنْها. »

« لا أَعْرِفُ عَنْها سِوى ما قُلْتُهُ. وكُلُّ ما أَطْلُبُهُ الآنَ هُوَ أَنْ أَعودَ إلى كوخي عَلى النَّهْرِ، فَلَمْ يَعُدْ في العُمْرِ بَقِيَّةٌ . »

نَظَرَ الـمَلِكُ عاصِمٌ إلى وَزيرِه وأَمَرَهُ بِاصْطِحابِ الشَّيْخِ إِبْراهيمَ إلى كوخِه. خَرَجا مَعًا لِيَعودَ إلى جِلْسَتِه أَمامَ ابْنِه الَّذي تَعَلَّقَتْ عَيْناهُ بِالعَباءَةِ، في حينِ أَخَذَ أَبوهُ يَضْرِبُ كَفًّا بِكَفٍّ قائِلاً: « يَبْدو أَنَّ الشَّيْخوخَةَ قَدْ ذَهَبَتْ بِعَقْلِ الشَّيْخِ

إِبْراهيمَ الطَّيِّبِ !»

وأَلْقى بالعَباءَة عَلى مسنَد مَقْعَد ابنه الَّذي الْتَقَطَها وجَعَلَ يتأَمَّلُ الصّورَةُ في شَغَف لَمْ يَلْحَظْهُما الـمَلكُ عاصمٌ الَّذي تَساءَلَ: « هَلْ يَظُنُّ هذا الشَّيْخُ أَنَّ في إمْكان شابٍّ تَوَلّى اليَوْمَ أَمْرَ الـمَمْلَكَةِ أَنْ يَرْتَديَ عَباءَةً عَلَيْها صورَةُ امْرَأَةٍ ؟»

أَجابَ سَيْفُ الـمُلوك بِعَيْنَيْنِ حالـمَتَيْنِ مَبْهورَتَيْنِ: « إِنَّها يا أَبي لَيْسَتْ مُجَرَّدَ امْرَأَةٍ ! إِنَّها أَميرَةُ الـحُسْنِ والـجَمالِ، وابْنَةُ مَلِكِ بابِلَ !»

« حتّى لَوْ كانَت الْمَلِكَةُ بَلْقيسَ أَو الْمَلِكَةَ سميراميسَ نَفْسَها. ورُبَّما كانَتْ هَذه العَباءَةُ خُطَّةً خَبيثَةً مِنْ مَلك بابلَ لكَيْ يُوقِعَ بكَ في غَرامِها وتَتَزَوَّجَها، وبَعْدَ ذَلكَ يَفْرِضُ سَيْطَرَتَهُ عَلى مَمْلَكَتنا، مُسْتَغلا في ذَلكَ حَداثَتَكَ وقِلَّةَ خِبْرَتكَ بِأَحابيلِ السِّياسَة وخُدَعِها.»

« ومَنْ قالَ، يا أَبي، إِنَّني سأَتَصَرَّفُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسي؟

أطالَ اللّهُ عُمْرَكَ ومتَّعَكَ بالصِّحَّةِ والعافيَةِ. سيَظَلُّ الرَّأيُ رأيَكَ والـمَشورَةُ مَشورتَكَ إلى أنْ تأْذَنَ لي بِأنْ أُمْسِكَ بِزمامِ بَعْضِ الأُمورِ.»

« جعَلَكَ اللّهُ، يا بُنيَّ ،قُرَّةَ عَيْني.»

« لَكنْ لا أُخفي عَلَيْكَ، يا أَبي، أَنَّ الشَّيْخَ إبْراهيمَ الطَّيِّبَ قَدْ أشْعَلَ شوْقِيَ لمعْرِفَةِ حِكايَةِ أميرَةِ الـحُسْنِ والـجَمالِ.»

« يا بُنَيَّ .. منَ اليَوْمِ انْتَهَتْ أَيّامُ التَّدْليلِ والبَحْثِ عَنِ الإثارَةِ والتَّشْويقِ، فَأنْتَ أمامَكَ مَسئوليّاتٌ قَوْميَّةٌ جَسيمَةٌ لا بُدَّ أنْ تَتَعَلَّمَ كَيْفَ تَنْهَضُ بِها، فَلَمْ تَعُدْ مَسْئولاً عَنْ نَفْسِكَ فَحَسْبُ، بَلْ عَنْ كُلِّ رَعايا الـمَمْلَكَةِ.»

« كُنْتُ أَظُنُّ، يا أَبي، أَنَّ كُلَّ ما يَتَمَنّاهُ الـمَرْءُ يُدْرِكُهُ، خاصَّةً إذا كانَ مَلِكًا !»

« المَثَلَ الَّذي يَقولُ:<<السُّلْطانُ مَنْ كانَ بَعيدًا عَنِ السُّلْطانِ>> مَثَلٌ صَحيحٌ تَمامًا، فالإنْسانُ العادِيُّ يَسْتَطيعُ

أَنْ يُفَكِّرَ ويُقَرِّرَ ويَتَّخِذَ قَرارَهُ في لَحَظات، أَمّا الـمَلِكُ فَيُفَكِّرُ ويَحْسُبُ ويُقَدِّرُ أَلْفَ مَرَّةٍ عِنْدَ الإِقْدامِ عَلى خُطْوَةٍ جَديدَةٍ، ورُبَّما أَلْغى قَرارَهُ في اللَّحْظَةِ الأَخيرَةِ.»

ابْتَسَمَ سَيْفُ الـمُلوكِ وقالَ في حَرَجٍ مُحاوِلاً مُداعَبَةَ أَبيه: «قَبْلَ أَنْ تَنْهالَ الـمَسْئولِيّاتُ الـجَسيمَةُ عَلى رَأْسي، أُريدُ أَنْ أَعْرِفَ سِرَّ هَذِهِ الأَميرَةِ الـجَميلَةِ الغامِضَةِ.»

«لَمْ تَعُدْ طِفْلاً يا سَيْفُ حَتّى تَتَشَبَّثَ بِلُعْبَةٍ أَعْجَبَتْكَ!»

«لَقَدْ عَلَّمْتَني الصِّدْقَ والصَّراحَةَ، يا أَبي. وأَعْتَرِفُ أَمامَكَ أَنَّ هَذِهِ الأَميرَةَ خَلَبَتْ لُبِّيَ ولَمْ أَعُدْ قادِرًا أَنْ أَنْأى بِعَيْنِيَ عَنْ صورَتِها الخَلّابَةِ.»

لَمْ يُخْفِ الـمَلِكُ عاصِمٌ رَنَّةَ السُّخْرِيَةِ في كَلِماتِه وهو يَقولُ: «هَلْ وَقَعْتَ في غَرامِ صورَةٍ مَرْسومَةٍ عَلى عَباءَةٍ؟»

«ولِـماذا لا أرى صاحِبَتَها بِلَحْمِها ودَمِها؟»

نَهَضَ الـمَلِكُ عاصِمٌ في ضيقٍ وشَرَعَ في مُغادَرَةِ البَهْوِ قائلاً: « لَنْ أَتَناقشَ في هَذا اللَّغْوِ مرَّةً أُخْرى. »

ثُمَّ خَرَجَ في حينِ كانَ ساعدٌ يُتابعُ ما يَدورُ في حَرَجٍ بالغٍ أَلْزَمَهُ الصَّمْتَ في حَضْرَةِ الـمَلِك عاصِمٍ، لَكنَّهُ خَرَجَ مِنْ حَرَجِه عَلى صَوْتِ سَيْفِ الـمُلوكِ وكَأَنَّهُ يُناجي نَفْسَهُ في تَساؤُلٍ مُمضٍّ: « كَيْفَ أَكونُ مَلِكًا وأَعْجزُ عَنْ تَحقيقِ رَغْبَةٍ بِهَذِه البَساطَةِ ؟»

(٤)

انْقَلَبَت الحالُ في القَصْرِ المَلَكيِّ رَأْسًا على عَقِبٍ. لَمْ يُصَدِّق الـمَلِكُ عاصِمٌ ما جَرى لابْنِه سَيْفِ الـمُلوك. كانَ يَظُنُّ في بادِئِ الأَمْرِ أَنَّ الـمَسْأَلَةَ مُجَرَّدُ إعْجابِ شابٍّ يافِعٍ بِصورَةِ فَتاةٍ جَميلَةٍ. وبَعْدَ أَنْ عَبَّرَ عَنْ رَغْبَتِه في أَنْ يَرى الفَتاةَ رَأْيَ العَيْنِ، ظَنَّ الأَبُ أَنَّها مُجَرَّدُ نَزْوَةٍ طارِئَةٍ لا تَلْبَثُ أَنْ تَزولَ، لَكنَّهُ لَمْ يَتَصَوَّرْ قَطُّ أَنْ تَتَحوَّلَ الـمَسْأَلَةُ إلى مَأْساةٍ تَكادُ تَقْضي عَلى ابْنِهِ الَّذي وَضَعَ فيهِ

كُلَّ أَمَلِه في الـحَياة: مُنْذُ ميلاده الَّذي بَشَّرَهُمْ بِه الشَّيْخُ إبْراهيمُ الطَّيِّبُ، والَّذي كانَ بمَثابَةِ مُعْجزَة وَقَعَتْ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ منَ العُمْرِ أَرْذَلَهُ .لَكنِ الشَّيْخُ إبْراهيمُ نَفْسُهُ هُوَ الَّذي وَضَعَ السُّمَّ في العَسَلِ بتلْكَ العَباءَة الـمَشْئومَة الغامضَة الـمُريبَة الَّتي أَصابَت ابْنَهُ بالـجُنون. وعنْدَما بَعَثَ إلَيْه بوَزيره فارس لَعَلَّهُ يَعْرِفُ حَقيقَتَها فَتَنْجَلي أَسْرارُها، كانَ الشَّيْخُ قَدْ فارَقَ الـحَياةَ في كوخه الُمطلِّ عَلى النَّهْر. وظَلَّتْ مَعْلوماتُهُمْ مَقْصورَةً عَلَى أَنَّ الصّورَةَ هِيَ لأَميرَة الـحُسْنِ والـجَمال ابْنَةُ مَلك بابلَ .

غُموضٌ ما بَعْدَهُ غُموضٌ، وكانَ يُمْكنُ أَنْ يَمُرَّ الأَمْرُ بسَلامٍ كَأَنَّهُ زَوْبَعَةٌ في فنْجان، لَوْ عادَت الأُمورُ إلى سيرَتها الأولى. لَكنِ البَوادرُ البَشعَةُ للْمحْنَة بَدَتْ بوَجْهها القَبيح في الأُفُق عنْدَما أَصَرَّ سَيْفُ الـمُلوك عَلى السَّفَر إلى بابلَ لطَلَب يَد أَميرَة الـحُسْنِ والـجَمال منْ أَبيها مَلك بابلَ. في البدايَة اسْتَهْجَنَ الـمَلكُ عاصمٌ هَذا

الطَّيْشَ وأَصرَّ عَلى التَّصَدّي لِهَذه النَّزْوَة الخَرْقاء حتّى تَنْقَشعَ. فَلَيْسَ منَ الـمَعْقول أَنْ يَتْرُكَ مَلكٌ شئُون مَمْلَكَته بَحْثًا عَنْ فَتاة لا يَعْرِفُ عَنْها شَيْئًا، ومَعَ ذَلكَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ وَقَعَ في حُبِّها حَتّى أُمِّ رأْسه.

قَدَّمَ الـمَلكُ عاصِمٌ لابْنه عَشَرات منْ جَميلات أَميرات البَيْتَ الـمالك، لَعَلَّ إحْداهُنَّ تَنْشُلُهُ منْ هاوِيَة هَذه الحَماقَة، لَكنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْبأُ حَتّى بِرَفْع عَيْنَيْه لتَحيَّتِهِنَّ. ثُمَّ اعْتَزَلَ العالَمَ تَمامًا في جَناحه بِالقَصْر، لا يَرى ولا يُكَلِّمُ أَحَدًا سوى الجارِيَة الـجَميلَة مَرْجانَةَ الَّتي لَوْلاها ما عَرَفَ الـمَلكُ عاصِمٌ شَيْئًا عَن ابْنه الَّذي تَفاقَمَتْ حالَتُهُ لدَرَجة البُكاء لَيْلَ نَهارَ، وكادَ يَمْتَنِعُ عَنِ الطَّعامِ لَوْلا إلْحاحُ مَرْجانَةَ عَلى تَناوُل ما يُقيمُ أَوَدَهُ.

كانَ الـمَلكُ عاصِمٌ يَتَلَقّى منْ مَرْجانَةَ كُلَّ صَباحٍ أَنْباءَ ابْنه. ولَوْلا مَرْجانَةُ الـجارِيَةُ الـجَميلَةُ النَّقِيَّةُ الَّتي رَعَتْهُ بِكُلِّ مَشاعِرِ الأُمومَة بِرَغْمِ أَنَّها تَصْغُرُهُ بِعامٍ ونِصْف العامِ، ما

عَرَفَ كَيْفَ يَتعامَلُ مَعَ ابْنِه. فَقَدْ أَصْبَحَتْ في نَظَرِه مَلاكًا أَرْسَلَهُ اللَّهُ لِرعايَةِ ابْنِه في مِحْنَتِه الَّتي لا يَعْرِفُ مَتى أَوْ كَيْفَ يَخْرُجُ مِنْها، لِذَلِكَ قَرَّرَ أن يَسْتَنيرَ بِرَأْيِها الَّذي لَمْ يَطْلُبْهُ مِنْها مِنْ قَبْلُ.

فوجِئَ بِها مُتَرَدِّدَةً في البَوْحِ بِما في قَلْبِها، لَكِنَّهُ عِنْدَما أَذِنَ لَها وشَجَّعَها، صارَحَتْهُ بِأَنَّ سَيْفَ الـمُلوكِ قَدْ بَلَغَ مِنَ النَّحافَةِ والذُّبولِ والضَّعْفِ دَرَجَةً تُنْبِئُ بِاحْتِمالاتٍ كَئيبَةٍ ومُخيفَةٍ. وقَدْ فَعَلَتْ مَعَهُ المُسْتَحيلَ لِكَيْ يُخَفِّفَ مِنْ وَطْأَةِ الكابوسِ الَّذي يَرْزَحُ تَحْتَها، لَكِنَّ كُلَّ مُحاوَلاتِها باءَتْ بِالفَشَلِ لِدَرَجَةِ أَنَّها في الأَيّامِ الأَخيرَةِ أَصْبَحَتْ تُؤْمِنُ بِأَنَّ الـحَلَّ الوَحيدَ الَّذي قَدْ يُخْرِجُهُ مِنْ مِحْنَتِه أَنْ يُقابِلَ هَذِهِ الأَميرَةَ قَبْلَ فَواتِ الأَوانِ.

ضاعَفَتْ كَلِماتُ مَرْجانَةَ الصَّريحَةُ مِنْ مَخاوِفِ الـمَلِكِ عاصِمٍ عَلى مَصيرِ ابْنِه، وشَرَعَ في التَّراجُعِ عَنْ إِصْرارِهِ الَّذي كادَ يُؤَدّي إِلى نَتيجَةٍ عَكْسِ الَّتي يَتَمَنّاها

تَماماً، وبِرَغْمِ أَنَّهُ تَوَجَّسَ خيفَةً مِنْ قيامِ ابْنِه بِرِحْلَةٍ لا بُدَّ أَنْ يُقابِلَ فيها الـمَخاطِرَ والأَهْوالَ الَّتي يُمْكِنُ أَنْ تُهَدِّدَ حَياتَهُ، لَكِنْ ما دامَت الأَزْمَةُ بَلَغَتْ هَذا الحَدَّ مِنَ الـخُطورَة، فَلا بُدَّ مِنْ مُواجَهَتِها والتَّعامُلِ مَعَها بِجُرْأَةٍ بَدَلاً مِنْ تَجاهُلِها وتَجَنُّبِها.

ولأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ مَرَضِ سَيْفِ الـمُلوك، وجَدَ الـمَلِكُ عاصِمٌ في نَفْسِه الـجُرْأَةَ عَلى مُواجَهَةِ ابْنِه الَّذي صَدَمَهُ هُزالُهُ ومَرَضُهُ عِنْدَما رآهُ، لَكِنَّهُ تَماسَكَ وناقَشَ مَعَهُ الـمَوْضوعَ مِنْ كُلِّ جَوانِبِه واحْتِمالاتِه، ثُمَّ أَنْهى حَديثَهُ قائِلاً كَمُحاوَلَةٍ أَخيرَة: « يا وَلَدي، قُمْ في هَذِه السّاعَة، وارْكَبْ إِلى الصَّيْدِ والقَنْصِ واللَّعِبِ في الـمَيْدان، ومَتِّعْ نَفْسَكَ بِالطَّعامِ والشَّراب، واصْرِفِ الهَمَّ والغَمَّ عَنْ قَلْبِكَ. يا وَلَدي، ابْقَ عَلى كُرْسِيِّ مَمْلَكَتِكَ، وأَنا أُسافِرُ إِلى مَمْلَكَةِ بابِلَ وأَبْحَثُ هَذا الأَمْرَ بِنَفْسي. »

أَجابَ سَيْفُ الـمُلوكِ وبَوادِرُ الـحُمْرَةِ تَعودُ إِلى وَجْهِه:

« يا أبي، إنَّ الأَمْرَ مُتعلِّقٌ بي، وما يَقْدرُ أَحَدٌ أَنْ يُفَتِّشَ عَنْهُ مِثْلي. والأَفْضَلُ أَنْ أُسافِرَ وأَتَغَرَّبَ مُدَّةً مِنَ الزَّمانِ، فإذا وَجَدْتُ حَبيبَتي تَمَّ الـمُرادُ.»

« وإذا لَمْ تَجِدْها ؟»

« لا تَخَفْ، يا أَبي، فَأَنا لَمْ أَفْقِدْ عَقْلِيَ بَعْدُ. إذا لَمْ أَجِدْها يكونُ في السَّفَرِ انْشِراحُ صَدْري وخاطِري، ومَعْرِفَتي بِأَحْوالِ الدُّنْيا، لَيْسَ خارِجَ القَصْرِ والبُسْتانِ والنَّهْرِ فَحَسْبُ، بَلْ خارِجَ الـمَمْلَكَةِ نَفْسِها.»

سَعِدَ الـمَلِكُ عاصِمٌ بِهَذا الكَلامِ الَّذي أَعادَ بَعْضًا مِنْ ثِقَتِهِ في ابْنِهِ، وأَمَرَ في الـحالِ بِإِحْضارِ كُلِّ تاجِرٍ في الـمَدينَةِ، وكُلِّ غَريبٍ فيها، وكُلِّ سائِحٍ في البِلادِ، لِيَسْأَلَهُمْ عَنِ الطَّريقِ إلى بابِلَ، فَأَجابوا أَنَّهُمْ سَمِعوا عَنْها لَكِنَّهُمْ لَمْ يَبْلُغوها لِبُعْدِها عَنْ بِلادِهِمْ. فَعادَتِ الـمَخاوِفُ والهَواجِسُ لِتَنْهَشَ قَلْبَ الـمَلِكِ عاصِمٍ عَلى ابْنِهِ الَّذي كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَقومَ بِرِحْلَةٍ بَعيدَةٍ وخَطيرَةٍ بِدافِعِ

لا ضَرورَةَ لَهُ ولا مَعْنى. لَكِنَّ بَعْضًا مِنَ السَّكينَةِ عادَ إلى قَلْبِه الـمُضْطَرِب عِنْدَما جاءَهُ أَحَدُ قادَة القَوافِلِ التِّجارِيَّة لِيُقَدِّمَ لَهُ خِبْرَتَهُ في السَّفَرِ إلى بابِلَ الَّتي زارَها مَرَّةً واحِدَةً لَكِنَّهُ لا يَزالُ يَتَذَكَّرُ الطَّريقَ إلَيْها.

سَأَلَهُ الـمَلِكُ عاصِمٌ بِقَلَقٍ: « وكَمْ تَسْتَغْرِقُ هَذِهِ الرِّحْلَةُ في الذَّهابِ والإِيابِ بِسَلامَةِ اللَّه ؟»

« لَيْسَ أَقَلَّ مِنْ ثَلاثَةِ أَعْوامٍ إذا كانَ التَّوْفيقُ حَليفَنا. »

الْتَزَمَ الـمَلِكُ عاصِمٌ الصَّمْتَ تَحْتَ وَطْأَة تَساؤُلاتٍ تَنْهَشُهُ عَنْ مَدى احْتِمال ابْنِه الـمُرَفَّه والـمُدَلَّلِ لِرِحْلَةٍ شاقَّة وخَطيرَة بِهَذا الشَّكْلِ، يَخوضُ فيها أَهْوالَ البَحْرِ والصَّحْراء، وهُوَ الَّذي اعْتادَ حَياةَ الـحَريرِ والذَّهَبِ والـمَرْمَرِ وأَطايِبَ الطَّعامِ، لَكِنَّهُ سَرْعانَ ما سَلَّمَ أَمْرَهُ لِلَّه الَّذي قَيَّضَ لابْنِه الشَّيْخَ مُعينَ الدّينِ هَذا الرَّحّالَةَ الـخَبيرَ بِتَفاصيلِ الطَّريقِ، كَيْ يَصْحَبَهُ في رِحْلَتِه الَّتي كُتِبَتْ عَلَيْه، حَتّى يَعودَ مِنْها بِسَلامَةِ اللَّه.

(٥)

جَهَّزَ الـمَلكُ عاصمٌ لِسَيْف الـمُلوكِ قافلَةً ضَخْمَةً مُكَوَّنَةً منْ أَلْف مَمْلوك غَيْرِ الأَتْباع. أَمّا الصَّفْوَةُ الـمُحيطَةُ به فكانَ في مُقَدِّمَتها صَديقُ عُمْره ساعدٌ الَّذي تَرَكَ الوزارَةَ لأَبيه لحِينِ عَوْدَته مِثْلَما فَعَلَ سَيْفُ الـمُلوكِ بتَرْكه الـمَمْلَكة لأَبيه.

أَمّا جاريَتُهُ مَرْجانَةُ فَقَدْ أَعْلَنَتْ أَمامَ الـمَلك عاصمٍ أَنَّها نَذَرَتْ حَياتَها فداءً لـمَليكها سَيْف الـمُلوك، وبرَغْمِ أَنَّ القافلَةَ كُلَّها منَ الرِّجال، وهِيَ الفَتاةُ الوَحيدَةُ وسَطَهُمْ، فإنَّها لَنْ تَتْرُكَ سَيِّدَها الَّذي لَمْ تُفارقْهُ يَوْمًا واحدًا مُنْذُ أَن اشْتَراها أَبوهُ الـمَلكُ وهِيَ طفْلَةٌ في آخرِ سوق للْجَواري أُقيمَتْ في مَيْدانِ القَصْرِ الـمَلَكيِّ، وكانَتْ آخرَ سوق بالفعْلِ لأَنَّ الـمَلكَ عاصمًا حَرَّمَ إقامَةَ هَذه الأَسْواقَ طالَـما ظَلَّ عَلى قَيْد الحَياة، لأَنَّهُ يؤْمنُ أَنَّهُ لا عُبوديَّةَ إلا للَّه وَحْدَهَ سُبْحانَهُ وتَعالى.

أمّا الرَّحّالَةُ مُعينُ الدّينِ فكانَ سَعيدًا بهَذه الصُّحْبَةِ الـجَميلَة والـمُثيرَة، فَهُوَ لَمْ يَقُمْ بِرحْلَة مثْلها مُنْذُ أَمَد بَعيد، برَغْمِ الرِّحْلات العَديدَة الَّتي جابَ فيها الأَرْضَ شرْقًا وغَرْبًا. كَما أَنَّهُ استَبْشَرَ بوَجْه مَرْجانَةَ الَّذي لَمْ يرَ مَثيلاً لَهُ في جَماله وسحْره. وتَساءَلَ مُعينُ الدّينِ في نَفْسه عَنْ سَيْف الـمُلوك الَّذي مَنَحَهُ اللَّهُ كُلَّ هَذا السِّحْرِ والـجَمال ومَعَ ذَلكَ تَهْفو نَفْسُهُ لصورَة فَتاة يُمْكنُ أَنْ يَجدَها مُجَرَّدَ وَهْمٍ أَوْ أُكْذوبَة. هَذا إذا وَجَدَها على الإطْلاقِ !

غَرِقَ الـمَلكُ عاصمٌ بَيْنَ طَيّات الكآبَة وأَمْواجِ الـحُزْنِ وهُوَ يُتابعُ خُطُوات الإعْداد للرِّحْلَة تُقَرِّبُ منْهُ لحَظات الوَداعِ. وتَذَكَّرَ جُمْلَةً كانَ الشَّيْخُ إبْراهيمُ الطَّيِّبُ قَدْ قالَها يَوْمَ ميلاد ابْنه، لَكنَّ فَرْحَتَهُ الغامرَةَ أَنْسَتْهُ إيّاها. وها هُوَ ذا صَوْتُ الشَّيْخِ يَعودُ بَعْدَ عشْرينَ عامًا ويَرنُّ في أُذُنَيْه كَرَجْعِ الصَّدى أَوْ هَمْسِ القَدَرِ: « إنَّ ابْنَكَ هَذا سَتَجْري

عَلَيْهِ شَدائِدُ الدُّنْيا، ولَيْسَ لَنا حيلَةٌ إلا الصَّبْرَ حتّى يُفَرِّجَ اللَّهُ عَنْهُ الكَرْبَ الَّذي يُصيبُهُ !»

كانَ الـمَلِكُ عاصِمٌ في غَمْرَةِ نَشْوَتِه بِميلادِ ابْنِه، قَدْ أَخَذَ هَذِه الكَلِماتِ عَلى مَحْمَلٍ عامٍّ يَنْطَبِقُ عَلى البَشَرِ أَجْمَعينَ، لكِنَّهُ لَمْ يَظُنَّ أَنَّ ابْنَهُ وَحيدَهُ كانَ الـمَقْصودَ بِها. كَمْ طارَدَهُ الشَّيْخُ إِبْراهيمُ في أَحْلامِه أَوْ كَوابيسِه كُلَّما أَوْشَكَتْ إِجْراءاتُ السَّفَرِ أَنْ تَنْتَهِيَ ! ولِكَيْ يَهْرُبَ مِنْ أَشْباحِ أَفْكارِه السَّوْداءِ بِقَدْرِ الإِمْكانِ، انْهَمَكَ بِدَوْرِه في إِتْمامِ هَذِهِ الإِجْراءاتِ ما دامَ لَمْ يَعُدْ هَناكَ مَفَرٌّ مِنَ الرَّحيلِ.

مَنَحَ ابْنَهُ أَمْوالاً طائِلَةً وكُلَّ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَسْلِحَةٍ لِلدِّفاعِ عَنْ نَفْسِه، كَما أَغْدَقَ العَطاءَ عَلى مُعينِ الدّينِ الَّذي شَعَرَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْسَلَهُ حَتّى لا يَضِلَّ ابْنُهُ الطَّريقَ إِلى بابِلَ، ولِذَلِكَ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِه واعْتَبَرَ ابْنَهُ أَمانَةً في يَدَيْه. ولَمّا تَمَّ شَحْنُ القافِلَةِ بِالـماءِ والزّادِ والسِّلاحِ والـحَرَسِ،

احْتَضَنَ الـمَلكُ عاصِمٌ ابْنَهُ سَيْفَ الـمُلوكِ قائلاً: « سافِرْ، يا وَلَدي، في خَيْرٍ وعافيَةٍ وسَلامَةٍ، وقَدِ اسْتَوْدَعْتُكَ عِنْدَ مَنْ لا تَضيعُ عِنْدَهُ الوَدائعُ . »

كَذَلِكَ فَعَلَ الوَزيرُ فارِسٌ مَعَ ابْنِه ساعِد، وإِنِ اسْتَطاعَ أَنْ يكْتُمَ في قَلْبِه سَخَطَهُ عَلى سَيْفِ الـمُلوكِ الَّذي تَجَلّى حُمْقُهُ في حُبٍّ وَهْمٍ سَخيفٍ لا مَعْنى لَهُ، و وَرَّطَ مَعَهُ ابْنَهُ ساعِدًا في رِحْلَةٍ قَدْ تَكونُ بِلا عَوْدَة. فَلَمْ يكُنْ في اسْتِطاعَتِه أَنْ يَمْنَعَ ابْنَهُ مِنَ السَّفَرِ، وهُوَ الَّذي كانَ أَكْثَرَ مِنْ أَخٍ لِسَيْفِ الـمُلوكِ ابْنِ مَليكِه الَّذي لَمْ يَبْخَلْ عَلَيْهِ بِمَنْصِبٍ أَوْ بِثْرْوَة، لَكِنَّهُ لَمْ يُلْقِ بِاللَّوْمِ عَلى عاتِقِ الشَّيْخِ إِبْراهيمَ كَما فَعَلَ الـمَلكُ عاصِمٌ ؛ إِذْ كانَ مِنَ الـمُمْكِنِ أَنْ يَحْتَفِظَ سَيْفُ الـمُلوكِ بِالعَباءَةِ في خِزانَتِه كَتَذْكارٍ مِنْ هَذا الشَّيْخِ الـمَبْروك، وألا يَنْغَمِسَ حَتّى أُذُنَيْه في دُوّامَةِ هَذِه الـحَماقَةِ الَّتي تُثيرُ السُّخْرِيَةَ، والَّتي لا يَجْدُرُ بِمَلِكِ البِلادِ الـمَسْئولِ عَنْ كُلِّ رَعاياهُ أَنْ يَرْتَكِبَها بِهَذِه

السَّذاجَة.

تَحَرَّكَت القافلَةُ وسَيْفُ الـمُلوك يُلوِّحُ مِنْ عَرَبَته الذَّهَبيَّة لأَبيه الَّذي انْهَمَرَت الدُّموعُ عَلى خَدَّيْه ولحْيَته، وكَذَلكَ ساعدٌ الَّذي تَماسَكَ بكُلِّ جَوارحِه وهُوَ يَرى أَباهُ يُلَوِّحُ بِذراعٍ مُرْتَعشَةٍ.

وظَلَّت القافلَةُ في طَريقها حَتّى أَسْوارِ الـمَدينَة لتَخْرُجَ مِنْ بَوّابَتها الكُبْرى الَّتي فُتحَتْ لَها عَلى مصْراعَيْها. ولَمْ يَشْرَعِ الـمَلكُ عاصمٌ والوَزيرُ فارسٌ في العَوْدَة إلى القَصْرِ إلا بَعْدَ أَنْ تَمَّ إغْلاقُ البَوّابَة مَرَّةً أُخْرى، وهُما يَمْسَحان دُموعَهُما.

(٦)

سارَت القافلَةُ عَبْرَ وهاد الصَّحْراء الـمَهيبَة، وبحذاء جبالها الشَّمّاء الَّتي تُطاوِلُ السَّماءَ. وكانَتْ طُيورُ الْعُقَاب تَطير حَوْلَها عنْدَما تَخْتَرِقُ الوُدْيانَ العامرَةَ بالآبارِ والنَّخيلِ

حَيْثُ يَعيشُ البَدْوُ الرُّحَّلُ بِقُطْعانِهِمُ الَّتي تَرْعى الكَلأَ. استَراحَ سَيْفُ الـمُلوكِ لِمَنْظَرِ الخِرافِ الوَديعَةِ النّاعِسَةِ حَوْلَ الآبارِ عِنْدَما ضَرَبَت القافِلَةُ خِيامَها بَيْنَ النَّخيلِ في ثاني مَحَطَّةٍ لِلاستِراحَةِ قَبْلَ الـمَرْحَلَةِ الأَخيرَةِ لِعُبورِ الخَليجِ.

لَقَدْ تَعِبَتْ عَيْناهُ مِنْ صُفْرَةِ الصَّحْراءِ الَّتي لا تَنْتَهي طَوالَ النَّهارِ، وفي اللَّيْلِ تَتَحَوَّلُ التِّلالُ والـجِبالُ إلى مَرَدَةٍ داكِنَةٍ أَوْ سَوْداءَ بِلا حَراكٍ، لَكِنَّها تُوحي بِأَنَّها موشِكَةٌ عَلَى الانْقِضاضِ لابْتِلاعِ الـمَخْلوقاتِ الَّتي تَمُرُّ عِنْدَ سُفوحِها. ولأَوَّلِ مَرَّةٍ يَشْعُرُ سَيْفُ الـمُلوكِ بِمَدى ضَآلَةِ الإِنْسانِ في مُواجَهَةِ جَبَروتِ الطَّبيعَةِ الَّذي لَمْ يَرَ مِنْهُ شَيْئًا حَتّى الآنَ، عَلى حَدِّ قَوْلِ الشَّيْخِ مُعينِ الدّينِ الَّذي حكى لَهُ عَنْ هَوْلِ عَواصِفِ الرِّمالِ الَّتي تَضْرِبُ العُيونَ، وتَسُدُّ الأُنوفَ والآذانَ، فَتَتَعَذَّرُ الرُّؤْيَةُ، وتَتَشَتَّتُ الأَصْواتُ، ويَتَحَوَّلُ الإِنْسانُ إلى ذَرَّةٍ مِنَ الرِّمالِ.

ضُرِبَت الـخَيْمَةُ الكَبيرَةُ وَسْطَ الـخيامِ الصَّغيرَةِ حَوْلَ الآبار، وجَلَسَ سَيْفُ الـمُلوك في الصَّدارَة يَتَناوَلُ كوبًا منَ اللَّبَنِ وبَعْضَ حبّات التَّمرِ الَّتي وَضَعَتْها مَرْجانَةُ أَمامَهُ عَلى طَبَقٍ مِنْ فضَّة، ثُمَّ جَلَسَتْ في رُكْنٍ قَصيٍّ رَهْنَ إشارَته. لَمْ يُصَدِّقْ مُعينُ الدّينِ مَدى رِعايَتها لَهُ وحُنُوِّها عَلَيْه كَأُمٍّ تَحْتَضِنُ طِفْلَها بِرَغْمِ أَنَّها تَصْغُرُهُ سِنًّا.

كانَ سَيْفُ الـمُلوكِ مُدَلَّلاً مِنَ النَّوْعِ الَّذي يَظُنُّ أَنَّ كُلَّ



النّاسِ تَحْتَ إمْرَتِه ورَهْنَ إشارَته؛ فَمُنْذُ بدايَة الرِّحْلَة، لَمْ يَطْرَأْ على باله أَنْ يَشْكُرَ ساعداً الَّذي تَحمَّلَ منْ أَجْله كُلَّ هَذه المَشاقِّ والمَخاطر الَّتي لَيْس لَهُ فيها ناقَةٌ ولا جَمَلٌ، وكَأَنَّ ذَلكَ واجبٌ وطَنيٌّ أَوْ قَوْميٌّ أَوْ تاريخيٌّ يَتَحَتَّمُ عَلَيْه القيامُ به، وهُما اللّذان تَرَكا مَسْئوليّات المَمْلَكَة الَّتي سَعدَتْ بهما كَمَلك وكَوَزير يَجْلسان عَلى قمّتها. فَمَهْما يُقَلْ في هَذه الرِّحْلَة المَلَكيَّة، فإنَّ مُعينَ الدّين لَمْ يَرَ فيها سِوى عَبَثٍ صِبْيانِيٍّ، و لَوْلا المُكافَأَةُ المُجْزِيَةُ الَّتي



مَنَحَها الـمَلكُ عاصمٌ لَهُ، ولَوْلا الإصْرارُ الـمَجْنونُ لابْنه عَلى القيامِ بِهَذه الرِّحْلَةِ، لَكانَ قَدْ وَضَعَ في سَبيلِها كُلَّ الأَسْبابِ الَّتي تَعوقُها.

زَأَرَت الرِّياحُ خارجَ الـخَيْمَةِ، واهْتَزَّتْ أَلْسنَةُ الـمَشاعِلِ بشدَّةٍ، فَوَمَضَ الـخَوْفُ في عَيْنَيْ سَيْفِ الـمُلوكِ، وتَمَلْمَلَ في جلْسَته سائلاً مُعينَ الدّين: « هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَهْدِمَ الرِّياحُ الـخَيْمَةَ فَوْقَ رُؤوسنا ؟»

« لا تَخَفْ ! فَإِنَّ الواحَةَ الَّتي نَحْنُ فيها الآنَ تَقَعُ بَيْنَ جَبَلٍ و تَلٍّ يَصُدّان عَنْها العاصفَةَ عنْدَما تَشْتَدُّ. وما دامَت الإبلُ والـخرافُ لَمْ تُحَرِّكْ ساكنًا، فاطْمَئِنَّ ! لَكنَّها طُمَأْنينَةٌ لَنْ تَدومَ !»

تَساءَلَ سَيْفُ الـمُلوكِ في لَهْفَةٍ تَنُمُّ عَلى رُعْبٍ دَفينٍ: « كَيْفَ ؟»

« حَتّى الآنَ لَمْ يَحْدُثْ ما يُعَكِّر الصَّفْوَ، لَكنَّ اللَّهَ وَحْدَهَ يَعْلَمُ الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ بِمُجَرَّدِ إِبْحارِنا

وبُلُوغنا الخَليجَ !»

« مِثْلُ ماذا ؟»

« إنَّ حَديثَ الرِّجال للرِّجالِ يُحَتِّمُ الـمُصارَحَةَ الكاملَةَ لوَضْعِ كُلِّ الاعْتِباراتِ والاحْتِمالات في الـحُسْبان. نَحْنُ مُقْبِلونَ عَلى طَريقِ الأَهْوالِ ، وكانَتْ هَذِه الأَهْوالُ منَ الـمُمْكنِ أَنْ تَبْدأَ في الـمَرْحَلَةِ السّابقَة، لَكنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ وتَعالى سَلَّمَ. فلا قِبَلَ لأَحَد بِأَهْوالِ الصَّحْراءِ عِنْدَما تَبْلُغُ عُنْفُوانَها، فَفي إمْكانها أَنْ تَدْفِنَنا أَحْياءً تَحْتَ تلالِ الرِّمالِ الَّتي تَصْنَعُها دُوّاماتُها في لَمحِ البَصَرِ.»

تَساءَلَ سَيْفُ الـمُلوك في حَرَجٍ وتَرَدُّدٍ يَنُمُّ عَلى كآبَةٍ : « ولِماذا لَمْ تُصارِحْنا بِذَلِكَ قَبْلَ الرَّحيلِ ؟»

« هَلْ كُنْتَ سَتَتَراجَعُ عَنْ قَرارِكَ وإِصْرارِكَ لَوْ عَرَفْتَ ؟»

تَحَوَّلَ الـحَرَجُ إلى نَظَراتٍ زائغَةٍ باحِثَةٍ عَنْ كَلِماتٍ تَسُدُّ

فَراغَ السُّكونِ الَّذي لَمْ يَقْطَعْهُ سوى زَئيرِ الرِّياحِ في الـخارِجِ، لكِنَّ الصَّمْتَ جَثَمَ عَلى أَنْفاسِ سَيْفِ الـمُلوك الَّذي تَجَنَّبَ نَظَراتِ مُعينِ الدّينِ الَّذي واصَلَ حَديثَهُ الكاسِحَ: « عُمومًا، نَحْنُ لا نَزال عَلى البَرِّ. في إمْكاننا عنْدَ أَوَّل شُعاعٍ للْفَجْرِ أَنْ نَشُدَّ الرِّحالَ للْعَوْدَة، وبَعْدَ خَمْسَة أَيّامٍ تكونُ في قَصْرِ أَبيكَ مُنَعَّمًا مُكْرَمًا ومُحاطًا بالـجَمالِ والسِّحْرِ اللَّذَيْنِ لا نَرى منْهُما الآنَ سوى جَمال سحْرِ ابْنَتِنا العَزيزَةِ مَرْجانَةَ !»

قالَ سَيفُ الـمُلوكِ في حَسْمٍ واضِحٍ: « غَدًا سَنَشُدُّ الرِّحالَ عنْدَ أَوَّل شُعاعٍ لِلْفَجرِ، حَيثُ المَراكِبُ في انْتظارِنا بِحِذاءِ ساحِلِ البَحْرِ.»

نَهَضَ ساعدٌ لإبْلاغِ الأَمْرِ إلى الـحُرّاسِ والأَتْباعِ حَتّى يُعِدّوا أَنْفُسَهُمْ قَبْلَ بُزوغِ الفَجْرِ، في حينِ قالَ مُعينُ الدّينِ: « لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَمْنَعَ نَفْسِيَ منْ تَخَيُّلِ فَرْحَةِ الـمَلكِ عاصِمٍ بَلْ وذُهولِهِ عنْدَما يَرى ابْنَهُ وَ وَحيدَهُ

ومَلكَ البلاد عائدًا إلَيْه في أَتَمِّ صحَّة وعافيَة بَعْدَ عَشرَةِ أَيّامٍ فقَطْ مِنْ رَحيله ليُديرَ دفَّةَ الأُمور بَيْنَ رَعاياهُ !»

وتَظاهَرَ سَيْفُ الـمُلوك بِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا عَلى الإِطْلاقِ !

(٧)

تَحْتَ أَشعَّة الشَّمْسِ السّاطعَة، بَدا سَطْحُ البَحْرِ مُتَأَلِّقًا حتّى خَطِّ الأُفُقِ حَيْثُ انْطَبَقَت السَّماءُ عَلى الـماء، والقافلَةُ تَقْتَرِبُ مِنَ السّاحلِ حَيْثُ كانَتْ خَمْسُ سُفُنٍ كَبيرَة في انْتظارها. وحَطَّت الـجمالُ رحالَها عَلى السّاحلِ تَمْهيدًا لنَقْلها إلى السُّفُن. وسَرْعانَ ما انْتَظَمَ طابورٌ طَويلٌ منَ الحُرّاسِ والأَتْباعِ حاملينَ السِّلاحَ والـمَتاعَ عَلى السّاحلِ، في حين أَمَرَهُمُ الشَّيْخُ مُعينُ الدّين بالانْقسام إلى خَمْسَة طَوابيرَ، كُلُّ طابور يَحُطُّ حُمولَتَهُ عَلى سَفينَة منَ السُّفُنِ الـمُنْتَظرَة، عَلى أَنْ يَتمَّ هذا بِأَسْرَعِ ما يكونُ حَتّى يَسْتَطيعوا عُبورَ مَنْطَقَة الصُّخور

الـحَمْراء والشُّعَب الـمَرْجانيَّة قَبْلَ مَغيب الشَّمْسِ، ذَلكَ أَنَّ السَّفينَةَ الَّتي تَجْنَحُ في هَذِه الـمِنْطَقَة الوَعِرَة، لا نَجاةَ لَها مِنَ الغَرَق.

تَرَبَّعَ سَيْفُ الـمُلوكِ في مَقْصورَة خَشَبيَّة صَغيرَة مُجَهَّزَة بكُلِّ الأَطْعمَة والـمَشْروبات والـمَقاعِد والأَسرَّة والـحَشايا، في أَضْخَم وأَفْخَم سَفينَة سارَتْ في مُؤَخِّرَة السُّفُنِ الأَرْبَع، حَتّى إذا تَعَثَّرَت أَوْ جَنَحَتْ أَوْ غَرِقَتْ إحْداها، فَإِنَّها تَنْأى عَنِ الـمَسارِ البَحْرِيِّ الـخَطِرِ الَّذي أَدّى إلى ذَلكَ .

وكُلَّما اسْتَمَعَ سَيْفُ الـمُلوك إلى النِّقاشِ الَّذي دارَ بَيْنَ مُعينِ الدّينِ وبَيْنَ البَحّارَة، كانَ القَلَقُ الـمُمضُّ يَسْري في جَوانحه، فَلَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ مُقْبِلٌ عَلى رِحْلَة مُخيفَة ورُبَّما تَكونُ مُميتَةً، رِحْلَة لا تَنْتَهي في أَيّامٍ أَوْ أَسابيعَ، بَلْ يُمْكنُ أَنْ تَسْتَغْرِقَ شُهوراً وسَنَوات، ورُبَّما لا يَعودُ مِنْها عَلى الإطْلاق.

دَخَلَتْ مَرْجانَةُ وهيَ تَحْمِلُ لَوْحًا مِنَ الـخَشَبِ عَلَيْهِ طَعامُ الغَداء، وَضَعَتْهُ عَلى مائِدَة صَغيرَة في وَسَطَ الـمَقْصورَة الـخَشَبِيَّة، في حينِ نَظَرَ مُعينُ الدِّينِ مِنْ خِلال النّافِذَة وأَعْلَنَ في سَعادَة خُروجَهُمْ مِنْ مَنْطَقَة الشُّعَب الـمَرْجانِيَّة والصُّخور الـحَمْراء. كانَتْ أَشْرِعَةُ السَّفينَة قَد امْتَلأَتْ بِالرِّياحِ الـمُواتِيَة وانْطَلَقَت السَّفينَةُ الكُبْرى تَشُقُّ عُبابَ الـمِياهِ في أَعْقابِ السُّفُنِ الصَّغيرَة الَّتي حَمَلَتْ عَلى مَتْنِها الـحَرَسَ والأَتْباعَ.

كانَ سَيْفُ الـمُلوك مَشْغولاً بِمُتابَعَة الـمَشاهِد مِنْ نافِذَة الـمَقْصورَة. لَمْ يَكُنْ مُسْتَريحًا لِمَناظِرِ الـجِبالِ القاتِمَة بَعْدَ أَن اخْتَفَتْ حُمْرَتُها تَحْتَ وَطْأَة الظِّلال الدّاكِنَة الَّتي مَدَّتْ أَطْرافَها مَعَ غِيابِ الشَّمْسِ. وَسَرْعانَ ما نَأَتْ بَعيدًا حَتّى أَصْبَحَتْ مُجَرَّدَ خُطوط رَفيعَة ابْتَلَعَها الأُفُقُ الَّذي انْطَبَقَ عَلى الـمِياه الـمُتَلاطِمَة عَلى امْتِداد البَصَرِ، وأَصْبَحَتِ السُّفُنُ الـخَمْسُ بُقَعًا مُتَراقِصَةً عَلى قِمَمِ

الأَمْواجِ، فَاشْتاقَ إلى طُمَأْنينَة اليابسَة حتّى لَوْ كانَتْ جِبالاً قاتِمَةً. « نَحْنُ الآنَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ . . »

قالَها وهُوَ يَنْظُرُ إلى مُعينِ الدّينِ الَّذي أَضافَ: « نَحْنُ دائِمًا بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ . . »

(٨)

مَرَّت الأَيّامُ واللَّيالي عَلى ما يُرامُ، وإنْ كانَ سَيْفُ الملوك قَدْ أَصْبَحَ موشكًا أَنْ يَقْتُلَهُ المَلَلُ، لَكِنَّ مُعينَ الدّينِ أَفْهَمَهُ أَنَّ المَلَلَ في البَحْرِ منْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّه، لأَنَّهُ يَعْني السَّلامَةَ والطُّمَأْنينَةَ، ولَمْ يَحْدُثْ أَنْ تَمَنّى بَحّارٌ مُحْتَرِفٌ نَوْعًا منَ الإثارَة أَوِ التَّشْويق عَلى سَبيلِ قَتْلِ المَلَلِ، لأَنَّهُ لا مَعْنى سِوى الأَعاصيرِ الَّتي يُمْكِنُ أَنْ تُودِيَ بِه هُوَ و مَنْ مَعَهُ. عِنْدَئذ لَزِمَ سَيْفُ المُلوك الصَّمْتَ خَجَلاً مِنْ سُلوك الرَّفاهِيَة والتَّدْليلِ الَّذي لا يَزالُ يَنْضَحُ عَلى كَلماته وحَرَكاته .

فَجْأَةً ظَهَرَ في الأُفْقِ خَطٌّ أَسْوَدُ مُتَماوِجٌ لَكِنَّهُ ثابِتٌ،

وقَبْلَ أَنْ يَتَساءَلَ أَجابَهُ مُعينُ الدّينِ بِأَنَّها جبالُ خَليجِ العَقَبَة وتلالُها، فَكانَتْ فَرْحَةُ سَيْفِ الـمُلوكِ لا تُوصَفُ، لَكنَّها فَرْحَةٌ لَمْ تَتِمَّ، إِذِ اهتَزَّتِ السَّفينَةُ بِعُنْفٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مَثيلٌ طَوالَ الرِّحْلَةِ، وأَصْبَحَ شراعُها الكَبيرُ يَتمايَلُ ويَتَمايَلُ لِدَرَجَةِ أَنَّ سَيْفَ الـمُلوكِ ظَنَّ أَنَّها سَتَنْقَلِبُ عَلى جانِبِها، فَتَشَبَّثَ بِعَمودٍ غَليظٍ مِنَ الـخَشَبِ في مُنْتَصَفِ الـمَقْصورَةِ ومَعَهُ مَرْجانَةُ وساعِدٌ، في حينِ صَعَدَ مُعينُ الدّينِ سُلَّمَ الـمَقْصورَةِ مُحاوِلاً أَلا يَسْقُطَ باسْتِنادِهِ إِلى الـجُدْرانِ الـخَشَبِيَّةِ الَّتي كادَتْ أَلْواحُها أَنْ تَصْرُخَ وتَئِنَّ مِنْ تَلاطُمِ الأَمْواجِ بِالسَّفينَةِ .

انْضَمَّ مُعينُ الدّينِ إِلى البَحّارَةِ الـمُمْسِكينَ بِالدَّفَّةِ وهُوَ يَصْرُخُ فيهِمْ لإِدارَتِها بِأُسْلوبٍ يَحْفَظُ لِلسَّفينَةِ تَوازُنَها، لَكِنَّ صَرَخاتِهِ تَلاشَتْ بَيْنَ طَيّاتِ الإِعْصارِ ؛ ثُمَّ بَلَغَ آذانَهُمْ دَوِيُّ اصْطِدامٍ أَعْلى مِنْ هَديرِ الإِعْصارِ ؛ وإِذْ بِسَفينَتَيْنِ في الـمُقَدِّمَةِ وقَدِ انْشَطَرَتا إِلى نِصْفَيْنِ، وتَناثَرَ

البَحّارَةُ عَلى سَطْحِ الأَمْواجِ بَيْنَ قِمَمِها وسُفوحِها، يَصْرُخونَ ويُصارِعونَ في حينِ أَمْسَكَ بَعْضُهُمْ بالأَلْواحِ الـخَشَبِيَّةِ الـمُتَناثِرَةِ والـمُتَقاذِفَةِ حَتّى لا تُؤَدِّيَ لَطَماتُ الـمِياهِ الـمَسْعورَةِ بِهِمْ إلى القاعِ السَّحيقِ.

لَمْ يُصَدِّقْ سَيْفُ الـمُلوكِ الكابوسَ الحَيَّ الـجاثِمَ عَلى أَنْفاسِه، وتَمَنّى أَنْ يَسْتَيْقِظَ مِنْهُ لِيَجِدَ نَفْسَهُ في فِراشِه في القَصْرِ الـمَلَكِيِّ، لَكِنَّهُ كانَ مُسْتَيْقِظًا بِالفِعْلِ وقَدْ أَمْسَكَ بِأَيْدي ساعِد ومَرْجانَةَ الَّتي تَشَبَّثَتْ بِذِراعِه، و وَميضُ عَيْنَيْها السَّوْداوَيْنِ يَشي بِخَوْفِها العارِمِ عَلَيْه .

أَمّا هُوَ فَقَدْ لَعَنَ في سِرِّه أَميرَةَ الـحُسْنِ والـجَمالِ الَّتي سَحَرَتْهُ ودَفَعَتْهُ إلى تَوْريطِ هَؤُلاءِ الأَبْرِياءِ في هَذِه الـمِحْنَةِ الَّتي دَمَّرَتْ سَفينَتَيْنِ وأَلْقَتْ بِكُلِّ مَنْ فيهِما مِنْ بَحّارَةٍ وأَتْباعٍ وحُرّاسٍ في خِضَمِّ جُنونِ البَحْرِ، لِيُصارِعوا الـمَوْتَ الَّذي أَطْبَقَ عَلَيْهِمْ، والَّذي تابَعَهُ سَيْفُ الـمُلوكِ وساعِدٌ ومَرْجانَةُ مِنْ نافِذَةِ الـمَقْصورَةِ الَّتي أَوْشَكَتْ أَنْ

تُصْبِحَ أُرْجوحَةً مُحَطَّمَةً بَيْنَ لَطَماتِ الأَمْواجِ. وفي لَمحِ البَصَرِ فَتَحَت الـمِياهُ فاهًا مِثْلَ كَهْفٍ مُظْلِمٍ لِيَبْتَلِعَ كُلَّ مَنْ كانَ عَلى سَطْحِها، ولَمْ يَتَبَقَّ طافِيًا سِوى أَلْواحِ الـخَشَبِ الْمُتَناثِرَةِ وجُزْءٌ مِنَ الصّاري الـمُحَطَّمِ والشِّراعِ الْمُمَزَّقِ.

وتَعالَت الصَّرَخاتُ ودَوَّت اللَّطَماتُ الـمُنْهالَةُ عَلى السَّفِينَتَيْنِ الـمُتَبَقِّيَتَيْنِ عَلى قِمَمِ الأَمْواجِ، اللَّتَيْنِ كانَتا موشِكَتَيْنِ أَنْ تَطيرا في الهَواءِ، ثُمَّ انْقَلَبَتا لِيَتَحَوَّلَ السَّطْحُ إلى القاعِ، ويُصْبِحَ قاعُها هُوَ سَطْحَها.

تَناثَرَ بَعْضُ الـحُرّاسِ والبَحّارَةِ عَلى قِمَمِ الأَمْواجِ، في حينِ اخْتَفى البَعْضُ الآخَرُ تَحْتَ السَّفِينَتَيْنِ وتَعَلَّقوا بِهِما لَكِنْ سَرْعانَ ما أَلْقَت الضَّرَباتُ واللَّطَماتُ بِهِمْ بَعيدًا. ثُمَّ انْهالَتْ عَلى السَّفِينَتَيْنِ المَقْلوبَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَناثَرَتْ أَلْواحُهُما. وعادَت الـمِياهُ لِتَفْتَحَ كَهْفَ فَمِها الـمُظْلِمَ لِتَلْتَهِمَ الوُجوهَ والصَّرَخاتِ مِنْ بَيْنَ بَقايا الـحُطامِ.

ولَمْ يَتَبَقَّ عَلى السَّطْحِ سِوى السَّفِينَةِ الكُبْرى الَّتي

ساعَدَها ثِقَلُ وَزْنِها عَلى الصُّمود في وَجْه الضَّرَبات واللَّطَمات، لَكِنَّ سَيْفَ المُلوك لَمْ يَحْتَمِلِ الكابوسَ فَأَفْرَغَ كُلَّ ما في جَوْفه مِنْ طَعامٍ، في حين أَمْسَكَتْ مَرْجانَةُ بِهِ حَتّى لا يَسْقُطَ عَلى وَجْهه، وقَدْ تَشَبَّثَ بها بنَظَرات زائغَة. وكانَ ساعدٌ يُتابعُهُما لَعَلَّهَ يَتَدَخَّلُ لِلْمُساعَدَة في اللَّحْظَة المُناسبَة، وهُوَ يُطَمْئنُهُ: « الحَمْدُ للَّه! لَقَدْ أَنْقَذَنا ثِقَلُ السَّفينَة وضَخامَتُها مِنْ بَطْشِ الإعْصار، ويَبْدو أَنَّ الشَّيْخَ مُعينَ الدّينِ اسْتَطاعَ أَنْ يَتَعامَلَ مَعَهُ. »

حاوَلَتْ مَرْجانَةُ أَنْ تُلَطِّفَ مِنْ هَوْل المحْنَة في شَجاعَة فائقَة ، فَقالَتْ: « يَدُ اللَّهِ مَعَنا! يَدُ اللَّهِ فَوْقَ كُلِّ الأَخْطارِ!»

تَمَزَّقَ الشِّراعُ الكَبيرُ لكنَّ الصّاري لَمْ يَنْكَسِرْ. انْداحَت الرِّياحُ المَجْنونَةُ، وتَراجَعَ الإعْصارُ، لكنَّ السَّفينَةَ لَمْ تَتَوقَّفْ عَنِ التَّأَرْجُحِ الشَّديدِ الَّذي يَصِلُ إلى دَرَجَة

التَّخَبُّط. ولَهجَت الأَلْسنَةُ بحَمْد اللَّه، وهَلَّ الشَّيْخُ مُعينُ الدِّين بطَلْعَته البَهيَّة هابطًا عَلى دَرَجات الـمَقْصورَة وهُوَ يَقولُ بصَوْته الُمشْبَع بالطُّمَأْنينَة والسَّلام:

« رَحْمَةُ اللَّه بنا لا حُدودَ لَها ! لَوْلا أَنَّ الإعْصارَ مَزَّقَ الشِّراعَ لَكُنّا الآنَ في القاعِ مَعَ السُّفُنِ الأُخْرى. فالإعْصارُ عادَةً ما تكونُ لَهُ مُقَدِّماتٌ أَوْ نُذُرٌ تُتيحُ للْبَحّارَة طَيَّ الشِّراعِ حَتّى لا تَنْقَلبَ السَّفينَةُ عنْدَما يَشْتَدُّ، لَكنَّني لَمْ أَمُرَّ بإِعْصارٍ هَبَّ فَجْأَةً بهذا الشَّكْلِ، وانْتَهى كَما بَدأَ . »

لَهجَ لسانُ سَيْف الـمُلوك بالحَمْد للَّه وخَرَّ ساجدًا، فَسَجَدوا مَعَهُ في خُشوعٍ وقُنوت في حينَ تَوَقَّفَت الأَلْواحُ الـخَشَبيَّةُ عَنِ الأَنين عنْدَما استَوَت السَّفينَةُ عَلى سَطْحِ الـمياه، وقَد انْهَمَكَ البَحّارَةُ والـحُرّاسُ في التَّجْديفِ حَيْثُ لا شراعَ يَقودُهُمْ إلى خُطوط الـجِبالِ والتِّلالِ القابعَة عنْدَ انْطباقِ السَّماءِ عَلى الـماءِ .

عنْدَما انْتهَوْا مِنْ ركَعاتِهِمْ، نَهَضوا وسَيْفُ المُلوك يَنْظُرُ عَبْرَ النّافذَة الخَلْفِيَّة للمَقْصورَة والأَسى يَفْتَرِشُ وَجْهَهُ عنْدما وَقَعَتْ عَيْناهُ عَلى البُقْعَة الَّتي غَرِقَتْ فيها السُّفُنُ الأَرْبَعُ، ولسانُهُ يَنْطِقُ بدون إرادَة: « هَذه المِياهُ الَّتي عادَتْ إلى هُدوئها.. ابْتَلَعَتْهُمْ جَميعًا كَأَنَّهُمْ لَمْ يكونوا ! أنا السَّبَبُ في كُلِّ ما جَرى !»

ربَّتَ مُعينُ الدّين كَتِفَهُ قائلاً: « إيّاكَ أَنْ تَقْنَطَ مِنْ رَحْمَة اللَّه. نَحْنُ دائمًا بَيْنَ يَدَيْه ورَهْنُ إرادَته.»

(٩)

أخيرًا أَلْقَت السَّفينَةُ خُطّافَها عَلى اليابسَة، وهَبَطَ البَحّارَةُ والأَتْباعُ والحُرّاسُ في سَعادَة غامرَة برَغْم ساعات التَّجْديف القاتلَة. وكانَ عَلى السّاحل ما يُشْبِهُ المَرْفَأَ الصَّغيرَ حَيْثُ الأَكْواخُ الَّتي امْتَدَّتْ بطوله، وقَوافلُ الجمال الَّتي تَحْملُ القادمينَ منَ البَحْر، وجَماعاتُ الصَّيّادينَ الَّذين هُرِعوا إلى رِزْقِهِمْ مَعَ طَلائع

الفَجْرِ .

لم يَعُد الشَّيْخُ مُعينُ الدّينِ يَعْتَبرُ المَلكَ سَيْفَ الملوك كَبيرَ الرِّحْلَة، بَلْ أَصْبَحَ في نَظَرِه مُجَرَّدَ ابْنٍ لَهُ، لا يَفْعَلُ شَيْئًا إلا بَعْدَ أَنْ يَسْأَلَهُ رَأْيَهُ، هَذا إذا فَعَلَ شَيْئًا عَلى الإطْلاق. وقَفَ بَيْنَهُمْ لِيُؤَكِّدَ لَهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْطَعوا الصَّحْراءَ الكَبيرَةَ بِأَقْصى سُرْعَة مُمْكِنَة قَبْلَ اقْتِرابِ مَوْسِمِ العَواصِف الَّتي يُمْكِنُ أَنْ تَدْفِنَهُمْ أَحْياءً تَحْتَ تلالِ الرِّمالِ الَّتي تَتَكَوَّنُ مَعَ الدَّوّاماتِ الرَّهيبَةِ ثُمَّ تَنْهالُ عَلى القَوافِلِ الَّتي أَدْرَكَتْها.

بَدا الشَّيْخُ مُعينُ الدّينِ شامخًا بِقامَته النَّحيلَة الفارِعَة وهُوَ يَحْكُمُ رابِطَةَ العِمامَة حَوْلَ رَأْسه، ويُواصِلُ شَرْحَهُ للمَوْقف: « نَحْنُ الآنَ في أَقْصى جَنوبِ أَرْضِ فِلَسْطينَ ! وسَأَقومُ الآنَ باسْتِئْجارِ قافلَة تَحْمِلُنا حَتّى البَحْرِ المَيِّت الَّذي سَنُواصِلُ السَّيْرَ بِحِذائه حَتّى مَصَبِّ نَهْرِ الأُرْدُنِ لِنَعْبُرَهُ ولِتَبْدأَ مَسيرَتُنا عَبْرَ صَحْراءِ الشّامِ الكُبْرى . »

لَمْ يَسْتَطِعْ سَيْفُ الـمُلوكِ أَنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنَ التَّساؤُلِ: « وكَمْ سَتَسْتَغْرِقُ هَذِهِ الـمَسيرَةُ ؟»

لَيْسَ أَقَلَّ مِنْ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ، بِشَرْطِ أَنْ تكونَ ساعاتُ السَّيْرِ ثَلاثَةَ أَضْعافِ ساعاتِ الرّاحَةِ والنَّوْمِ !»

شَعَرَ سَيْفُ الـمُلوكِ بالكابوسِ الَّذي يَرْزَحُ تَحْتَ وَطْأَتِه، فَلَزِمَ الصَّمْتَ، وحَلَمَ بِالنَّوْمِ في فِراشِه بِقَصْرِ أَبيه، هَذا إِذا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَوْدَةً سالِمَةً. والْتَقَتْ عَيْناهُ بِعَيْنَيْ مَرْجانَةَ الـجَميلَتَيْنِ الـمُتَأَلِّقَتَيْنِ بِرَغْمِ الأَهْوالِ الَّتي اجْتازوها، فَسَرى البِشْرُ والتَّفاؤُلُ في جَوانِحِه. ابْتَسَمَتْ في عُذوبَةٍ طافِحَةٍ بِالخَجَلِ وكَأَنَّها تُجَدِّدُ آمالَهُ في نَجاحِ مُهِمَّتِه الَّتي كانَتْ تُدْمي قَلْبَها دونَ أَنْ تُظْهِرَ ذَلِكَ. فَقَدِ الْتَزَمَتْ حُدودَها كَمُجَرَّدِ جارِيَةٍ لا يَحِقُّ لَها أَنْ تُبْدِيَ أَيَّةَ مَشاعِرَ دَفينَةٍ تُجاهَ مَلِكِ البِلادِ الَّذي يَنْوي طَلَبَ يَدِ أَميرَةٍ في مُسْتَواهُ. ومَعَ ذَلِكَ كانَتْ سَعيدَةً إِلى دَرَجَةِ النَّشْوَةِ بِقُرْبِها مِنْهُ، ذَلِكَ أَنَّ حُبَّها لَهُ لا يَعْرِفُ سِوى العَطاءِ. ومَعَ

ذَلكَ لَمْ تَغِبْ هَذه الـمَشاعِرُ الدَّفينَةُ عَلى ذَكاء الشَّيْخِ مُعين الدّين، وساعَد الَّذي كانَ قَدْ عَقَدَ العَزْمَ بَيْنَهُ وبَيْنَ نَفْسه عَلى الزَّواجِ مِنْ مَرْجانَةَ، إذا وُفِّقَ سَيْفُ الـمُلوك في الزَّواجِ مِنْ أَميرَةِ الـحُسْنِ والـجَمال، ومِنْ هُنا كانَتْ رِقَّتُهُ البالِغَةُ في تَعامُلِه مَعَها، مِمّا أَصابَها بِحَرَجٍ بالِغٍ في بَعْضِ الْمَواقف.

كانَتْ في نَظَرِهِ جَوْهَرَةً ثَمينَةً قَلَّ أَنْ يَجدَ مِثْلَها.

لَمْ يُضِعْ مُعينُ الدّينِ وَقْتًا، فَسَرْعانَ ما اتَّفَقَ عَلى اسْتِئْجارِ قافِلَة كَبيرَة حَمَلَتْهُمْ مَعَ مَتاعِهِمْ عَبْرَ طَريقٍ تَخْتَرِقُ حُقولاً مُرَصَّعَةً بِأَشْجارِ البُرْتُقال والزَّيْتون، ومُتَدَثِّرَة بالأَشعَّة الذَّهَبِيَّة الـمُتَسَلِّلَة مِنْ بَيْنَ الأَغْصان، ومُحْتَضِنَة لِلأَبْقارِ النّاعِسَةِ والأَغْنامِ الْمُجْتَرَّة لِلأَوْراقِ الـخَضْراء.

ارْتاحَتْ عَيْنا سَيْف الـمُلوك وهُوَ يُتابِعُ مِنْ هَوْدَجه هَذه الـمَناظِرِ الـخَلابَةِ الَّتي ذَكَّرَتْهُ بِحُقولِ بِلادِه الَّتي تَمْتَدُّ

عَلى مَدى البَصَرِ حَيْثُ انْطباقُ السَّماء عَلى الأَرْضِ عِنْدَ خَطِّ الأُفْق، فَوَجَدَ نَفْسَهُ مُمَزَّقًا بَيْنَ الـحَنين القاتِلِ لأَبيه وأُمِّه و وَطَنِه وبَيْنَ الشَّوْق الـحارِق لتِلْكَ الفاتِنَة الغامِضَة السَّاحِرَة الـمَدْعُوَّة أَميرَة الـحُسْنِ والـجَمال الَّتي بَدَتْ وكَأَنَّها حورِيَّةٌ بَزَغَتْ أَمامَهُ في مُنْتَصَف البَحْرِ، ودَعَتْهُ إلى الغَوْصِ مَعَها حَتّى الأَعْماق، تَحْدوها ثِقَةٌ بالِغَةٌ بِأَنَّهُ لَنْ يَسْتَطيعَ مُقاوَمَةَ نِدائها الآسِرِ. وانْطَلَقَ خَيالُهُ الـجَامِحُ لِيَقْطَعَ الصَّحاريَ والقِفارَ والسُّهولَ والغابات في لَمحِ البَصَرِ لِيَرْسُمَ أَمامَ بَصيرَته كُلَّ الـمَشاهِد والأَحاديث الَّتي يُمْكِنُ أَنْ تَدورَ بَيْنَهُما عِنْدَما يَتِمُّ اللِّقاءُ الـمُرْتَقَبُ .

تَواصَلَت الرِّحْلَةُ دونَ أَنْ يُعَكِّرَ صَفْوَها حَدَثٌ مَأْسَوِيٌّ عَنيفٌ مِثْلُ إعْصار البَحْرِ الَّذي قَضى عَلى مُعْظَمِ البَحّارَة والحُرّاسِ الَّذينَ ابْتَلَعَتْهُمُ الدُّوّاماتُ مَعَ سُفُنِهِمُ الأَرْبَع. لَوْ لَمْ يَحْدُثْ هَذا لَكانَتْ رِحْلَةً مُمْتِعَةً، لَكِنَّ النَّدَمَ لا يُمْكِنُ أَنْ يُعيدَ الزَّمَنَ إلى الوَراءِ ولَوْ لِلَحْظَةٍ واحِدَةٍ .

وبَعْدَ أيّامٍ بَلَغوا البَحْرَ المَيِّتَ الَّذي ارْتاحَ سَيْفُ الـمُلوكِ لِهُدوئِه وسُكونِه، لِدَرَجَةِ أَنَّ الشَّمْسَ كانَتْ تَسْطَعُ عَلى بَعْضِ مساحاتٍ مِنْ سَطْحِه، فَتَنْعَكِسُ كَأَنَّها سَقَطَتْ عَلى مَرايا أَوْ أَلْواحٍ زُجاجِيَّةٍ. هَمَسَ سَيْفُ الـمُلوكِ لِنَفْسِه : « آه ! لَوْ كانَتْ كُلُّ البِحارِ وَديعَةً ومُتطامِنَةً بِهَذا الشَّكْلِ الحالِمِ.» لَمْ تَشْبَعْ عَيْناهُ مِنْ مُتابَعَةِ البَحْرِ، ومَراكِبِ الصَّيْدِ، والصَّيّادينَ الَّذينَ مَدّوا شِباكَهُمْ فيما بَيْنَها، والأَسْماكِ الفِضِّيَّةِ الَّتي تَتَقاذَفُ داخِلَها وبَيْنَ ثُقوبِها، والصِّبْيَةِ الَّذينَ يَسْبَحونَ ويَتَرَدَّدُ صَدى ضَحَكاتِهِمْ.

كانَ سَيْفُ الـمُلوكِ يَتَعَلَّمُ كُلَّ يَوْمٍ شَيْئًا بَلْ أَشْياءَ لَمْ تَخْطُرْ لَهُ بِبالٍ وهُوَ في قَصْرِ أَبيه الَّذي تَشابَهَتْ فيه الأَيّامُ واللَّيالي، أَمّا في هَذا التَّرْحالِ الَّذي لا يَتَوَقَّفُ، فَإِنَّهُ لا يَعْرِفُ ما الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ في اللَّحَظاتِ التّالِيَةِ !

بَلَغَتِ القافِلَةُ رَأْسَ البَحْرِ الـمَيِّتِ حَيْثُ مَصَبُّ نَهْرِ الأُرْدُنِ، فَهَبَطَ الـجَميعُ مِنْ عَلى ظُهورِ الإِبِلِ، حَيْثُ

كانَت الـمَراكِبُ والقَوارِبُ جاهِزَةً لِنَقْلِهِمْ إلى الضِّفَّة الأُخْرى الَّتي رابَطَتْ عَلَيْها قَوافِلُ أُخْرى لإِكْمال المَسيرَة لِمَنْ يُريدُ عُبورَ صَحْراء الشّام الكُبْرى. كانَ الشَّيْخُ مُعينُ الدّين يَقومُ بِتَنْظيمِ كُلِّ كَبيرَة وصَغيرَة كَقائد خَبير بِتَفاصيل الـمَرْحَلة التّالِيَة، وهِيَ الـمُهِمَّةُ الَّتي كانَ سَيْفُ الـمُلوك يَتَمَنّى أَنْ يَنْهَضَ بها، لَكِنَّ جَهْلَهُ بِأَيِّ شَيْءٍ خارِجَ حُدود الـمَمْلَكَة جَعَلَهُ مُجَرَّدَ فَرْد مِنْ أَفْراد الـمَجْموعَة، وإِنْ كانَ مُقامُهُ الـمَلَكِيُّ مَحْفوظًا مِنَ الـجَميع. أَمّا مَرْجانَةُ فكانَتْ تَحومُ حَوْلَهُ كالفَراشَة الـجَميلَة الرَّقيقَة بِأَلْوانِها الزّاهِيَة البَرّاقة في بيئَة بَدَأَتْ تُسْفِرُ عَنْ جَهامَتِها في صَحْراءَ مُمْتَدَّة حَتّى الأُفُق الَّذي تَقْطَعُهُ التِّلالُ الدّاكِنَةُ والـجِبالُ الشّامِخَةُ، وتَمْتَدُّ سَلاسِلُها بِطول الطُّرُق الـمُلْتَوِيَة الواقِعَة تَحْتَ رَحْمَتِها .

(١٠)

تَوَغَّلَت القافِلَةُ في صَحْراءِ الشّامِ الكُبْرى، فَبَدَأَت

الوَحْشَةُ تَسْري في عُروقِ سَيْفِ الـمُلوكِ الَّذي نَظَرَ خَلْفَهُ فَوَجَدَ قَرْيَةَ الصَّيّادينَ الواقعَةَ عَلى ضفَّةِ نَهرِ الأُرْدُن والَّتي انْطَلَقوا منْها، قَد اخْتَفَتْ تَمامًا، وأَصْبَحَ الأُفْقُ دائرَةً مُرْعبَةً مِنَ انْطباقِ السَّماءِ عَلى الصَّحْراءِ مِنْ كُلِّ الـجَوانبِ. وأَرْهَفَ سَيْفُ الـمُلوكِ السَّمْعَ للْحوارِ الَّذي دارَ بَيْنَ الشَّيْخِ مُعينِ الدّينِ وقائدِ القَبيلَةِ ذيّ الـمَلامحِ البَدَويَّةِ الصّارِمَةِ، إذِ انْطَلَقَ كُلٌّ منْهُما عَلى جَمَله إلى جوارِ الآخَرِ في مُقَدِّمَةِ القافلَةِ الَّتي بَدَتْ وكَأَنَّها تُسابِقُ الزَّمَنَ لِبُلوغِ واحَةٍ في الطَّريقِ قَبْلَ حُلولِ الظَّلامِ. فَقَد الْتَقَطَ سَيْفُ الـمُلوكِ مُعْظَمَ أَطْرافِ الـحوارِ الَّذي يُرْهِفُ السَّمْعَ إلَيْه، والَّذي أَشْعَرَهُ بأَنَّهُمْ قادمونَ عَلى كابوسٍ قَدْ لا يَسْتَيْقظونَ منْهُ. فالطُّرُقُ مُلْتَويَةٌ، وصاعدَةٌ ومُنْحَدرَةٌ في وُعورَةٍ تَجْعَلُ الـمَوْتَ يَتَربَّصُ بهمْ عنْدَ كُلِّ مُنْعَطَفٍ أَوْ سَفْحٍ، كَما أَنَّ سُخونَةَ النَّهارِ اسْتَحالَتْ بُرودَةً مَعَ مَقْدمِ الـمَساءِ الَّذي يَحْملُ في طَيّاته بَوادرَ الصَّقيعِ .

مَعَ حُلول الظَّلام بَلغوا واحَةً مَهْجورَةً ومُخيفَةً، حَيْثُ رَدَّدَ التَّلُّ الكَئيبُ القابعُ عَلى جانبها عُواءَ ذئاب، لا يَعْرفُ أَحَدٌ إذا كانَتْ بَعيدَةً أَوْ قَريبَةً. لَكنَّ الشَّيْخَ مُعينَ الدّينِ انْهَمَكَ في الإشْراف عَلى نَصْبِ الـخيامِ حَتّى يَسْتَريحَ الـمُتْعَبونَ الـمُنْهكونَ بَعْدَ عَناء السَّفَرِ الطَّويلِ، في حينِ تَحَرَّكَتْ مَرْجانَةُ كَأَنَّها ظِلٌّ لا يُفارِقَ سَيْفَ الـمُلوكْ.

وكانَتْ أَوَّلُ خَيْمَة تَمَّ إعْدادُها، هيَ أَكْبَرَ خَيْمَة لنَوْمِ سَيْف الـمُلوك ومَعَهُ ساعدٌ. وتَصَوَّرَ أَنَّهُ بدُخوله الـخَيْمَةَ، سَرْعانَ ما يُداعبُ النَّوْمُ جُفونَهُ، فَيَنْسى هَذا الـجَوَّ الكَئيبَ الـجاثمَ عَلى أَنْفاسه مثْلَ كابوسٍ لا يَنْقَشِعُ. وبالفعْلِ استَرْخى في فراشه وعَلى الفراشِ الـمُقابلِ نامَ ساعدٌ الَّذي زَهَدَ في الحَديث والثَّرْثَرَة. أمّا خارجَ الـخَيْمَة فَقَد انْتَصَبَ حارِسانِ وقَدْ وَضَعَ كُلٌّ منْهُما يَدَهُ عَلى مَقْبَضِ سَيْفه.

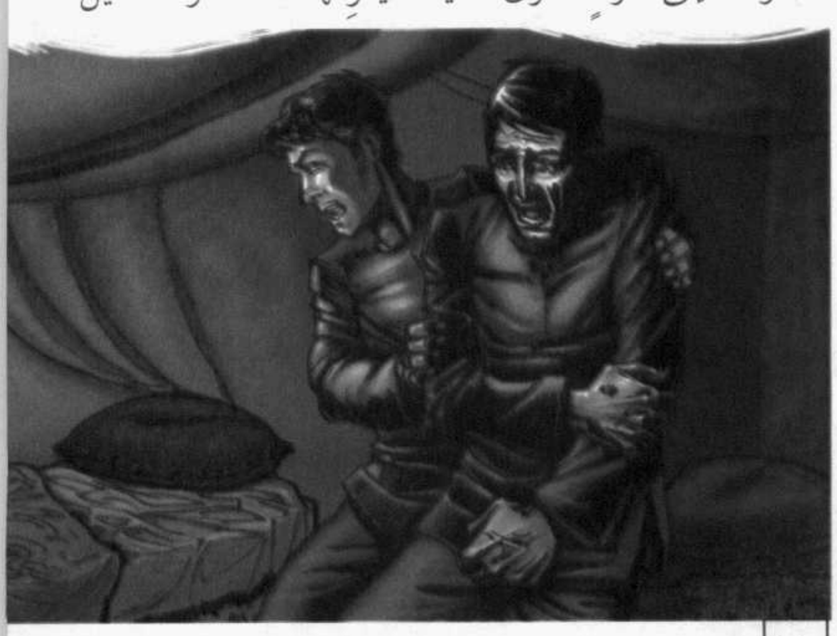
خفَتَتْ أَصْواتُ الحُرّاسِ والأَتْباعِ خارجَ الـخَيْمَةِ ؛ إذْ بَدا أَنَّهُمُ انْتَهَوْا مِنْ نَصْبِ الخِيَمِ الأُخْرى وناموا بدَوْرهمْ. أَمّا مَرْجانَةُ فَقَدْ نامَتْ كَعادَتِها في خَيْمَةٍ صَغيرةٍ مُسْتَقِلَّةٍ بِنَفْسِها وإِنْ كانَتْ مُلْحَقَةً بالـخَيْمَةِ الـمَلَكِيَّةِ .

حاوَلَ سَيْفُ الـمُلوكِ أَنْ يَسْتَجْدِيَ النَّوْمَ لِكَيْ يَطْوِيَهُ في غَيْبوبَةٍ تُنْسيهِ ما كانَ فيهِ، لَكِنَّ عَويلَ الرِّياحِ وحَفيفَ الرِّمالِ، وعُواءَ الذِّئابِ، ورَجْعَ الصَّدى، أَطارَتْ بَوادِرَ النُّعاسِ مِنْ جَفْنَيْهِ، خاصَّةً عِنْدَما بَلَغَ أُذُنَيْهِ حَفيفٌ اقْشَعَرَّ لَهُ بَدَنُهُ، أَعْقَبَتْهُ ارْتِعاشاتٌ مُتَتالِيَةٌ لِجدارِ الـخَيْمَةِ، فَطَمْأَنَ نَفْسَهُ بِأَنَّ الرِّياحَ هِيَ الَّتي تُحْدِثُ صَوْتَ الحَفيفِ، وتَهُزُّ جُدْرانَ الخَيْمَةِ، لَكِنَّهُ شَعَرَ فَجْأَةً وكَأَنَّ خَناجِرَ صَغيرَةً قَد انْغَرَسَتْ في ذِراعِهِ، فَانْتَفَضَ جالِسًا وقَدْ صَرَخَ صَرْخَةً مُدَوِّيَةً.

وفي لَمْحِ البَصَرِ دَخَلَ الحُرّاسُ حامِلينَ الـمَشاعِلَ، فَلَمَحَ أَحَدُهُمْ ثُعْبانًا ضَخْمًا يَتَسَلَّلُ خارِجًا أَسْفَلَ جِدارِ

الـخَيْمَة فَصَرَخَ: « ثُعْبانٌ ! ثُعْبانٌ !» وفي لحَظات كانَتْ مَرْجانَةُ بِرِداء النَّوْمِ وقَد انْطَلَقَتْ كَالسَّهْمِ إلى داخلِ الخَيْمَةِ الـمَلَكِيَّةِ وخَلْفَها الشَّيْخُ مُعينُ الدّين، لِيَجدَ سَيْفَ الـمُلوك مُمْسكًا بذراعه ومَلامِحُ الأَلَمِ والرُّعْبِ قَدْ تَجَسَّدَتْ على وَجْهِهِ في ضَوْءِ الـمَشاعِلِ، في حين احْتَضَنَهُ ساعِدٌ وَهُوَ لا يَدْري ماذا يَفْعَلُ.

ازْدادَ ذُهولُ مُعينِ الدّينِ وهُوَ يَرى مَرْجانَةَ وقَدْ تَحَوَّلَتْ إلى امْرَأَةٍ أُخْرى لا يَكادُ يَعْرِفُها. فَقَدْ مَزَّقَتْ ذَيْلَ



ردائها لِتَصْنَعَ مِنْهُ شَرِيطَيْنِ أَعْطَتْ أَحَدَهُما لِساعِد لِيَرْبُطَهُ بِقُوَّةٍ حَوْلَ ذِراعِ سَيْفِ الـمُلوك تَحْتَ لَدْغَةِ الثُّعْبانِ في حِينِ انْهَمَكَتْ في رَبْطِ الشَّرِيطِ الثّاني فَوْقَها، وقَدِ اسْتَسْلَمَ سَيْفُ الـمُلوك لِذِراعَيْها كَطِفْلٍ في حِضْنِ أُمِّه. ثُمَّ أَخَذَتْ سَيْفَ أَحَدِ الحُرّاسِ الواقِفِينَ في لَهْفَةٍ، والعُيونُ تُتابِعُها ذاهِلَةً وهِيَ تَغْرِسُ ذُؤابَةَ السَّيْفِ في الجُزْءِ الـمُتَوَرِّمِ مِنْ ذِراعِهِ بَيْنَ صَرَخاتِ سَيْفِ الـمُلوك وآهاتِه.



أَلْقَتْ مَرْجانَةُ بالسَّيْف جانبًا في حين تَدَفَّقَت الدِّماءُ مِنَ الذِّراعِ، وعنْدَما تَوَقَّفَ التَّدفُّقُ، وَضَعَتْ شَفَتَيْها عَلى الـجُرْحِ وجَعَلَتْ تَمتَصُّ الدِّماءَ ثُمَّ تَبْصُقُها أَكْثَرَ مِنْ مَرَّة إلى أَنْ جَفَّتْ، فَتَحَسَّسَت الـجُرْحَ بأَناملها الرَّقيقَة ثُمَّ نَظَرَتْ إلى ساعد ومُعين الدّين قائلَةً: « الحَمْدُ للَّه.. خَرَجَت الدِّماء بأَسْرَعِ ما يُمْكِنُ. ولَوْ كانَ هُناكَ سُمٌّ قَدْ جَرى في العُروقِ فَسَيَكونُ ضَعيفًا ويُمْكِنُ احْتمالُهُ.»

أَرْقَدَتْ مَرْجانَةُ سَيْفَ الـمُلوك في فراشه وهُوَ يَئِنُّ مِنَ الأَلَمِ، لَكنَّهُ كانَ يَنْظُرُ إلَيْها بامْتنان وحُبٍّ، وهيَ تُضيفُ قائلَةً: « فَكَّرْتُ في كَيِّ الجُرْحِ لَكنَّكَ لَنْ تَحْتَملَ مَزيدًا مِنَ الأَلَمِ، سَأَدْهُنُ الـجُرْحَ بعَصيرِ البَنْزَهير بَعْدَ أَنْ تَشْرَبَ بَعْضًا منْهُ لأَنَّهُ قاتلٌ للسُّمِّ !»

أَجابَ بنَبَرات واهنَة مُرْتَعشَة مُحاولاً كَبْتَ الأَلَمَ: « لَوْ عِشْتُ، يا مَرْجانَةُ، فَسَأَظَلُّ مَدينًا لَكَ العُمْرَ كُلَّهَ !»

« كُلُّنا مَدينونَ للَّه - سُبْحانَهُ وتَعالى - في كُلِّ لَحَظَة

نَعيشُها.»

وَجَدَ مُعينُ الدّينِ نَفْسَهُ يَتَكَلَّمُ دونَ تَفْكيرٍ: « لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أَنَّكِ فَيْلَسوفَةٌ أَيْضًا !»

أَرْخَتْ جَفْنَيْها خَجَلاً وهيَ تَنْظُرُ إلى سَيْفِ الـمُلوكِ وتَجُسُّ مكانَ اللَّدْغَةِ، ثُمَّ قالَتْ لَهُمْ: « اذْهَبوا لِتَسْتَريحوا، سَأَظَلُّ إلى جوارِهِ إلى أَنْ يَبْرأَ بِإِذْنِ اللَّهِ .»

قالَ ساعدٌ بِانْفِعالٍ جَيّاشٍ: « أَظَلُّ مَعَكِ لِتَلْبِيَةِ طَلَباتِه.»

عَلَّقَ الشَّيْخُ مُعينُ الدّينِ بِحَسْمِ قائدٍ في مَعْرَكَةٍ : « لَنْ نُواصِلَ الرِّحْلَةَ إلا عِنْدَما يَبْرأُ تَمامًا.»

خَرَجَ صَوْتُ سَيْفِ الـمُلوكِ واهِنًا مُرْتَعِشًا: « لَقَدْ تَسَبَّبْتُ لَكُمْ في مَتاعِبَ ومَخاطِرَ كُنْتُمْ في غِنًى عَنْها !

« لا أَعْرِفُ ماذا دَهاني مُنْذُ أَنْ وَقَعَتْ عَيْنايَ عَلى صورَةِ أَميرَةِ الـحُسْنِ والـجَمالِ ؟ والآنَ أَتَساءَلُ ما الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ لي لَوْ كَتَبَ اللَّهُ لي الحَياةَ ورَأَيْتُها وَجْهًا

لِوَجْهٍ ؟»

ضَحِكَ الشَّيْخُ مُعِينُ الدّينِ فَأَشاعَ البِشْرَ والتَّفاؤُلَ وهُوَ يَقولُ: « رُبَّما حَدَثَ لَكَ العَكْسُ تَمامًا. ورُبَّما كانَتْ صورةً لِفَتاةٍ وَهْمِيَّةٍ لا وُجودَ لَها. والوَهْمُ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَصْمُدَ لَحَظَةً واحِدَةً عِنْدَما يُواجِهُ الحَقيقَةَ !»

(١١)

مَرَّت الأَيّامُ واللَّيالي ثَقيلَةً مَليئَةً بالخَوْفِ والقَلَقِ، فَقَدِ اعْتَرَتْ سَيْفَ المُلوكِ حُمّى سَرَتْ في جَسَدِه المُنْهَكِ ولَوْلا اسْتِمْرارُ مَرْجانَةَ في عَمَلِ الماءِ البارِدِ عَلى جَبينِه و وَجْنَتَيْهِ وصَدْرِه، لَكانَ قَدِ احْتَرَقَ بها. و في كُلِّ لَيْلَةٍ كانَتْ تَنْتابُهُ رِعْشَةٌ تَظَلُّ تُزَلْزِلُ كِيانَهُ حَتّى مَطْلَعِ الفَجْرِ، لِدَرَجَةِ أَنَّها اسْتَسْلَمَتْ لِلْيَأْسِ في بَعْضِ اللَّحَظاتِ العَصيبَةِ القاتِمَةِ الَّتي لَمْ يَكُنْ لَها فيها مَلْجَأٌ سِوى صَلاةٍ صامِتَةٍ لِكَيْ يُنْقِذَهُ اللَّهُ مِنْ مِحْنَتِه. و لَمْ يَتَصَوَّرْ ثَلاثَتُهُمْ: هِيَ وَساعِدٌ والشَّيْخُ مُعينُ الدّينِ أَنْ يَعودوا إِلى أَرْضِ

الوَطَنِ بدونه. فَهَذا كابوسٌ لا يَحْتَمِلُهُ أَحَدٌ، خاصَّةً أَباهُ المَلِكَ عاصِمًا الَّذي عَقَدَ عَلَيْهِ كُلَّ آمالِهِ في مُسْتَقْبَلٍ مُشْرِقٍ لَهُ ولِبِلادِهِ.

وذاتَ صَباحٍ مُشْرِقٍ زالَتِ الحُمّى عَنْ جَسَدِه، وذَبَلَ الوَرَمُ الَّذي عَلى الجُرْحِ، وتَصَبَّبَ العَرَقُ عَلى جَبينِه الَّذي جَسَّتْهُ مَرْجانَةُ بِكَفِّها، فَشَعَرَتْ بِقَطَراتٍ رَطْبَةٍ مَسَحَتْها عَلى الفَوْرِ، في حينِ غَمَرَتْها مَوْجَةٌ مِنَ السَّعادَةِ المُنْتَشِيَةِ وهِيَ تَرى ابْتِسامَةً تَفْتَرِشُ وَجْهَ سَيْفِ المُلوكِ لأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلاءِ. ولَمْ تُصَدِّقْ أُذُنَيْها وهِيَ تَسْمَعُ صَوْتَهُ طالِبًا فَطيرَةً وكوبًا مِنَ الحُلْبَةِ السّاخِنَةِ حَتّى لا يَموتَ ضَحِيَّةَ الجوعِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْ سُمِّ الأَفْعى.

وكانَ يَوْمَ عيدٍ لِكُلِّ أَفْرادِ الفَريقِ الَّذينَ رَقَصوا وشَرِبوا وأَكَلوا لِتَعْويضِ ما مَرّوا بِهِ في الأَيّامِ العَصيبَةِ الَّتي أَوْشَكوا فيها أَنْ يَعودوا إلى الوَطَنِ بدونِ سَيِّدِهِمُ الَّذي تَجَوَّلَ أَخيرًا بَيْنَهُمْ وهُوَ يَتَفَقَّدُهُمْ ويُداعِبُهُمْ. وسُرْعانَ ما قَرَّرَ

الشَّيْخُ مُعينُ الدّينِ اسْتِئْنافَ الرَّحيلِ عَبْرَ صَحْراءِ الشّامِ الكُبْرى في مُحاوَلَةٍ لِتَعْويضِ الأَيّامِ الضّائِعَةِ بِقَدْرِ الإِمْكانِ.

تَواصَلَت الرِّحْلَةُ عَبْرَ الطُّرُقِ الـمُلْتَوِيَةِ صُعودًا وهُبوطًا، مَعَ الاسْتِراحَةِ لِساعاتٍ مَحْدودَةٍ، والتَّزَوُّدِ بِالـماءِ مِنْ بَعْضِ الآبارِ، وشِراءِ بَعْضِ الـخِرافِ والنِّعاجِ مِنْ بَدْوِ الواحاتِ الـمُتَناثِرَةِ والـمُتَباعِدَةِ عَلى الطَّريقِ. وشَعَروا بِالعِنايَةِ الإِلَهِيَّةِ تُحيطُهُمْ بِرَحْمَتِها، و كَمْ كانَتْ سَعادَتُهُمْ عِنْدَما تَحَوَّلَ اللَّوْنُ الأَصْفَرُ أَوِ البُنِّيُّ أَوِ الـدّاكِنُ الَّذي حاصَرَ عُيونَهُمْ لأَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ شُهورٍ، إِلى اللَّوْنِ الأَخْضَرِ الباهِتِ ثُمَّ الأَخْضَرِ الدّاكِنِ الَّذي غَطّى مِساحاتٍ شاسِعَةً مُنْبَسِطَةً، لا تَعوقُها سِوى بَعْضِ الأَحْراشِ أَوِ الغاباتِ الصَّغيرَةِ الزّاخِرَةِ بِأَشْجارِ البُرْتُقالِ واللَّيْمونِ والزَّيْتونِ، ونَخيلِ البَلَحِ الأَحْمَرِ والأَصْفَرِ.

عِنْدَئذ هَنَّأَهُمُ الشَّيْخُ مُعينُ الدّينِ بخُروجِهِمْ مِنْ صَحْراءِ الشّامِ الكُبْرى ودُخولِهِمْ سَهْلَ الأَنْبارِ الَّذي تَصِلُ حُدودُهُ إلى مَدينَة كَرْبلاءَ الَّتي سَرْعانَ ما تُؤَدّي بِهِمْ إلى مَدينَة بابِلَ حَيْثُ تُقيمُ أَميرَةُ الحُسْنِ والجَمالِ، الَّتي نَطَقَ باسْمِها وهُوَ يَتَنَقَّلُ بنَظَراته بَيْنَ سَيْفِ المُلوكِ ومَرْجانَةَ وساعِد، لكنَّهُمْ تَجَنَّبوا وَميضَ عَيْنَيْه.

كانَتْ سَعادَتُهُمْ غامِرَةً بِسَهْلِ الأَنْبارِ الشّاسِعِ، ولَمْ يَشْعُروا بأَيِّ ضيقٍ عِنْدَما أَخْبَرَهُمُ الشَّيْخُ مُعينُ الدّينِ بِأَنَّ عُبورَهُ قَدْ يَسْتَغْرِقُ سِتَّةَ أَوْ سَبْعَةَ أَشْهُر، فَلا يُمْكِنُ أَنْ يَسْأَمَ الإِنْسانُ هَذِه الطَّبيعَةَ الجَميلَةَ المُثيرَةَ.

كانَتْ أَيّامُ القافِلَة ولَياليها في اخْتِراقِها للسَّهْلِ الشّاسِعِ، قَدْ تَراوَحَتْ بَيْنَ التَّرْحالِ السَّريعِ أَوِ البَطيءِ عِنْدَ مَناطِقِ الصُّعود، وبَيْنَ ضَرْبِ الخيامِ لِنَيْلِ قِسْطٍ مِنَ الرّاحَةِ والنَّوْمِ. لكِنْ لَمْ يَخْطُرْ بِبالِ مَرْجانَةَ أَنَّ بِهَذا السَّهْلِ ما هُوَ أَخْطَرُ مِنْ سُمِّ الأَفْعى ؛ إذ إِنَّها ذاتَ فَجْرٍ سَمِعَتْ

صَيْحاتِ الـحُرّاسِ وصَرَخاتِهِمْ ورَكْضِهِمْ، فانْتَفَضَتْ قافِزَةً مِنْ فِراشِها لِتَنْظُرَ خارِجَ الـخَيْمَةِ لِتُفاجَأَ بِقَطيعٍ مِنَ الغوريلاتِ يَجْري وَراءَ الـحُرّاسِ والأَتْباعِ الَّذينَ دافَعوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِالـمَشاعِلِ الَّتي أَخافَتِ الغوريلاتِ لَكِنَّها واصَلَتْ إِثارَةَ الرُّعْبِ بِصَرَخاتِها الَّتي تُصِمُّ الآذانَ، ودَبيبِ أَقْدامِها الَّتي تَكادُ تَخْتَرِقُ الأَرْضَ.

لَمْ تَشْعُرْ مَرْجانَةُ بِرُعْبٍ مِثْلِ ذَلِكَ الَّذي اجْتاحَها في



ذَلكَ الفَجْرِ بِرَغْمِ كُلِّ صِفاتِ الشَّجاعَةِ والـجُرْأَةِ والثَّباتِ والرَّزانَةِ الَّتي اشْتَهَرَتْ بِها.

اسْتَدارَتْ لِتَدْخُلَ خَيْمَتَها وتَرْتَدي مَلابِسَ تُساعِدُها عَلى الفِرارِ دونَ أَنْ تَخْدِشَ النَّظَراتُ حَياءَها، لَكِنَّها شَعَرَتْ بِذِراعَيْنِ خَشِنَتَيْنِ كَقَضيبَيْنِ مِنْ حَديد، تُمْسِكانِ بِها مِنَ الـخَلْفِ وتَرْفَعانِها إلى أَعْلى. وصَرَخَتْ بِأَعْلى صَوْتِها مُحاوِلَةً التَّخَلُّصَ مِنْهُما ، لَكِنَّ الغوريلا صاحِبَةَ



الذِّراعَيْنِ جرَتْ مِثْلَ لِصٍّ استَوْلى عَلى كَنْزٍ وهِيَ تَصيحُ مُنْتَصِرَةً وقَدْ أطْلَقَتْ ساقَيْها لِلرِّيحِ.

كانَ سَيْفُ الـمُلوكِ قَد انْضَمَّ إلى ساعِدٍ ومُعينِ الدِّينِ والـحُرّاسِ والأَتْباعِ في مُحاوَلَةِ طَرْدِ الغوريلاتِ وإخافَتِها بالـمَشاعِلِ. وعِنْدَما وَجَدَ الغوريلا مُنْطَلِقَةً بِمَرْجانَةَ كَالإِعْصارِ، امْتَشَقَ سَيْفَهُ وقَفَزَ عَلى سَنامِ جَمَلٍ كانَ بارِكًا يَجْتَرُّ طَعامَهُ، فَنَهَضَ بِهِ في لَمحِ البَصَرِ وانْطَلَقَ في مُطارَدَةٍ مَحْمومَةٍ لِلْغوريلا وَسَطَ الأَحْراشِ الكَثيفَةِ الَّتي أَوْشَكَتْ أَنْ تَبْتَلِعَها، لَكِنَّ الـجَمَلَ الَّذي بَدا كَبِساطِ الرِّيحِ، لَحِقَ بِها. وبَيْنَ الكَرِّ والفَرِّ، اسْتَطاعَ سَيْفُ الـمُلوكِ أَنْ يَطْعَنَ الغوريلا بِسَيْفِهِ في جانِبِها، فَهاجَتْ وماجَتْ. وانْتَهَزَ فُرْصَةَ انْشِغالِها بِمَسْحِ الدِّماءِ بِذِراعِها اليُمْنى في حينِ واصَلَتِ الإِمْساكَ بِمَرْجانَةَ بِيُسْراها، فَهَجَمَ عَلَيها بِقَفْزَةٍ رَشيقَةٍ مِنْ جَمَلِه، واسْتَطاعَ أَنْ يُخَلِّصَها مِنْها، ويَضَعَها أَمامَهُ عَلى الـجَمَلِ الَّذي كَرَّ راجِعًا كَالرِّيحِ.

لَمْ تَشْعُرْ مَرْجانَةُ بِنَشْوَةٍ مِثْلِ تِلْكَ النَّشْوَةِ الَّتي غَمَرَتْها وسَيْفُ الـمُلوكِ يَجْلِسُ إلى جوارِها يُعالِجُ جُروحَها بِقَطَراتِ البَنْزَهيرِ الَّتي كانَتْ تَلْسَعُها.

قَطَعَ الشَّيْخُ مُعينُ الدّينِ نَشْوَتَها قائلاً لِسَيْفِ الـمُلوكِ في ابْتِسامَةٍ عَذْبَةٍ: «الآنَ عَرَفْتُ لِماذا اخْتارَ لَكَ الـمَلِكُ عاصِمٌ اسْمَ سَيْفِ الـمُلوكِ ؟ لَقَدْ هاجَمْتَ بِالسَّيْفِ زَعيمَ القِرَدَةِ بِطَريقَةٍ أَعْجَزَتْهُ عَنْ أَنْ يَلْمِسَكَ مُجَرَّدَ لَمسَةٍ.»

أَطْلَقَ سَيْفُ الـمُلوكِ ضِحْكَةً صافيَةً وهُوَ يَنْظُرُ إلى ساعِد: «لَمْ أُمارِسِ اللَّعِبَ والـمُبارَزَةَ بِالسَّيْفِ إلا مَعَ أَخي ساعِدٍ ! لَمْ أَتَصَوَّرْ في يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ أَنَّني سَأُبارِزُ غوريلا !»

قالَتْ مَرْجانَةُ لَهُ وهِيَ تَتَجَنَّبُ نَظَراتِهِ: «سَأَظَلُّ مَدينَةً لَكَ بِحَياتي العُمْرَ كُلَّهُ.»

«مِثْلَما أَنا مَدينٌ لَكِ !»

رانَ الصَّمْتُ الـمُفْعَمُ بِالـمَشاعِرِ الـجَيّاشَةِ، حَتّى قَطَعَهُ

مُعينُ الدّينِ: « هَذا الدَّيْنُ الـمُتَبادَلُ أَقْوى مِنْ أَيِّ عقدِ زَواجٍ !»

ازْدادَ الصَّمْتُ ثِقَلاً مُفْعَمًا بِحَرَجٍ غامضٍ حتّى قالَ ساعدٌ: « لَقَدْ تَعَلَّمْنا في هَذِهِ الرِّحْلَةِ ما لَمْ نَخْبُرْهُ طَوالَ حَياتِنا كُلِّها. »

أَضافَ سَيْفُ الـمُلوك مُسْتَدْرِكًا: « أَيْ إنَّ إهْداءَ الشَّيْخِ إِبْراهيمِ الطَّيِّبِ لِلْعَباءَةِ الَّتي تَحْمِلُ صورَةَ أَميرَةِ الـحُسْنِ والـجَمالِ لَمْ يَكُنْ عَبَثًا !»

عَلَّقَ الشَّيْخُ مُعينُ الدّينِ في حَسْمٍ: « لَكِنَّ العِبْرَةَ في النِّهايَةِ بِالأَصْلِ ولَيْسَتْ بِالصّورَةِ !»

(١٢)

أَخيرًا بَلَغَتِ القافِلَةُ أَسْوارَ كَرْبَلاءَ، حَيْثُ هَفَتْ نَفْسُ ساعد لِزِيارَتِها والإِقامَةِ بِها يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، لَكِنَّ سَيْفَ الـمُلوكِ، وقَدْ أَصْبَحَ القائِدَ الفِعْلِيَّ لِلْمَسيرَةِ، أَمَرَ الشَّيْخَ مُعينَ الدّينِ بِقَطْعِ أَقْصَرِ طَريقٍ مُؤَدِّيَةٍ إلى بابِلَ، فَما كانَ

مِنْهُمْ سِوى أَنْ مَرّوا بِأَسْوارِ الـمَدينَةِ مُرورًا عابرًا. وأَشاعَتِ القُرى الـمُتَناثِرَةُ عَلى الطَّريقِ، مَشاعِرَ الأُنْسِ والأُلْفَةِ والدِّفْءِ العاطِفِيِّ والكَرَمِ العَرَبِيِّ الَّذي دَفَعَ بِالفَلاحينَ البُسَطاءِ إلى الإِصْرارِ عَلى اسْتِضافَةِ القافِلَةِ في أَكْثَرَ مِنْ قَرْيَةٍ إلى أَنْ بَلَغوا بابِلَ بِأَبْراجِها ومآذِنِها الشّامِخَةِ خَلْفَ أَسْوارِها، حَيْثُ عَلَتْ دَقّاتُ قَلْبِ سَيْفِ الـمُلوكِ، فَقَدْ بَلَغَ في النِّهايَةِ الـمَدينَةَ الَّتي تَضُمُّ بَيْنَ جَوانِبِها أَميرَةَ الـحُسْنِ والـجَمالِ.

مَرّوا بِجِوارِ أَطْلالِ قَصْرِ نَبوخَذْ نَصَّرَ الَّذي يَقَعُ في وَسَطِه تِمْثالُ أَسَدِ بابِلَ الـمَصْنوعُ مِنَ البُرونْزِ الَّذي أَصابَهُ الزَّمَنُ بِخُضْرَةٍ داكِنَةٍ، وتابَعَتْ عُيونُ البابِلِيّينَ سَواءٌ مِنَ الشُّرُفاتِ أَوْ في الطُّرُقاتِ أَوْ في البَساتينِ أَوْ في الـمَيادينِ والسّاحاتِ، هَذا الـمَوْكِبَ الطَّويلَ مِنَ الغُرَباءِ الَّذينَ يَمْتَطونَ الـجِمالَ والـخُيولَ الَّتي اشْتَرَوْها في الطَّريقِ مَعَ العَرَبَةِ الـمُذَهَّبَةِ الَّتي تَجُرُّها الـخُيولُ الـمُطَهَّمَةُ، وقَدْ

تَرَبَّعَ فيها سَيْفُ الـمُلوك في أَبْهى حُلَله الـحَريريَّة البَيْضاء، وعِمامَته الَّتي رَصَّعَتْها جَوْهَرَةٌ حَمْراءُ في مُنْتَصَفِها، في صُحْبَة مَرْجانَةَ وساعد والشَّيْخ مُعين الدّين الَّذي أَخْبَرَ بَعْضَ الـحُرّاسِ عِنْدَ أَبْواب الـمَدينَة، أَنَّ الـمَلكَ سَيْفَ الـمُلوك في طَريقه إلى مَلك بابِلَ للقاء سَيَجْعَلُ الأَفْراحَ تَعُمُّ كُلَّ أَرْجاء مِصْرَ وكُلَّ أَرْجاء بابِلَ.

وتَطايَرَ الـخَبَرُ حتّى بَلَغَ قَصْرَ الـمَلك الَّذي اسْتَعَدَّ لمَعْرِفَة الـخَبَر اليَقين وسرِّ الزِّيارَة الـمُفاجِئَة. لكنَّ قَلْبَ سَيْفِ الـمُلوك أَصابَهُ انْقِباضٌ غامِضٌ عِنْدَما وَجَدَ في طَريق الـمَوْكِب عَشَرات بَلْ ومِئات الشَّبّاب والفَتَيات في العَباءات الَّتي تَحْمِلُ صُوَرَ أَميرَة الـحُسْنِ والـجَمال، والَّتي تُصَوِّرُ أَنَّ العَباءَةَ الَّتي في حَوْزَته لا مَثيلَ لَها في الدُّنْيا بِأَسْرِها. أَمّا مَرْجانَةُ فَقَدْ حَرَصَتْ على إخْفاء سَعادَتِها عِنْدَما رَصَدَتْ مَلامِحَ الانْقِباضِ والضّيقِ في عَيْنَيْه.

وسَرْعانَ ما تَمَّ اللِّقاءُ الـمَلَكِيُّ مَعَ مَلك بابِلَ الَّذي أَخفى ذُهولَهُ مِنْ طَلَبِ سَيْفِ الـمُلوكِ الَّذي قَطَعَ كُلَّ هَذه الـمَسافَةِ، ومَرَّ بكُلِّ هَذه الأَهْوالِ، للزَّواجِ مِنَ ابْنَتِه أَميرَةِ الـحُسْنِ والـجَمالِ بِمُجَرَّدِ رُؤْيَتِه لِصورَةٍ لَها عَلى عَباءَةٍ يرْتَديها مُعْظَمُ شَبابِ بابِلَ، احْتِفالاً بِزَواجِها مِنَ ابْنِ عَمِّها في نِهايَةِ الأُسْبوعِ.

وكانَ مَلِكُ بابِلَ يَظُنُّ أَنَّهُ طَلَبَ اللِّقاءَ لِعَقْدِ مُعاهَداتٍ تِجارِيَّةٍ وسِياسِيَّةٍ مع بابِلَ شَأْنَ الـمُلوكِ الَّذينَ صَنَعوا التّاريخَ، لَكِنَّهُ وَجَدَ نَفْسَهُ أَمامَ صَبِيٍّ غِرٍّ، يَتَمَسَّكُ بِوَهْمٍ كادَ يَفْقِدُ حَياتَهُ مِنْ أَجْلِه، وكَأَنَّ مَمْلَكَتَهُ كُلَّها لا حِسابَ لَها عِنْدَهُ. فَقَرَّرَ أَنْ يُلَقِّنَهُ دَرْسًا في مَسْؤوليّاتِ الـحُكْمِ والسُّلْطَةِ، فَلَمْ يَقُصَّ عَلَيْهِ شَيْئًا بِخُصوصِ عَقْدِ زَواجِ ابْنَتِه بَعْدَ أَيّامٍ، وسَمَحَ لَهُ بِلِقاءِ ابْنَتِه لأَنَّها صاحِبَةُ الشَّأْنِ.

لَمْ يُصَدِّقْ سَيْفُ الـمُلوكِ ما سَمِعَهُ، لَكِنَّهُ سَرْعانَ ما كانَ في القاعَةِ الذَّهَبِيَّةِ ذاتِ الأَعْمِدَةِ الـمَرْمَرِيَّةِ في انْتِظارِ

دُخول أَميرَة الـحُسْنِ والـجَمال. كانَ مثْلَ حالم يَنْتَقلُ منْ حُلْم ليَدْخُلَ في آخرَ، ومعَ ذَلكَ كانَ يُدْركُ أَنَّهُ واقعٌ أَجْمَلُ منْ أَيِّ حُلْم. فقَد احْتَشَدَت القاعَةُ بأَمْواج العطْر السّاحر الَّذي أَغْرَقَها لمقْدم الأَميرَة بطَلْعَتها البَهيَّة الَّتي تَجَلَّتْ عنْدَما تَبَدَّتْ منَ الباب العاجيِّ، وخَلْفَها وَصيفَتان لا تَقلان عَنْها جَمالاً وسحْرًا. أَلْقَتْ عَلى سَيْف الـمُلوك السَّلامَ والتَّحيَّةَ، فَرَدَّ بمثْلهما بصَوْت هامس مَبْحوح، وهُوَ يَرى جَمالَها الَّذي فاقَ صورَتَها بمَراحلَ، فأَعْجَزَهُ عَن التَّفْرقَة بَيْنَ الـحُلْم والواقع.

ولمّا جَلَسَتْ إليْه وهيَ تُكَلِّمُهُ بلَهْجَة مُتعاليَة لا تَليق بمَنْ هُوَ مثْلُهُ، شَعَرَ بأَنَّهُ فَرَّطَ في كَرامَته وكَرامَة بلاده وهيَ تُخْبرُهُ بعُنْجُهيَّة واضحَة أَنَّها تَعجَّبَتْ عنْدَما قَصَّ عَلَيْها أَبوها حكايَتَهُ الغَريبَةَ كَمَلك تَرَكَ مَسْئوليّات مَمْلَكته بَحْثًا عَنْ وَهْم قَطَعَ منْ أَجْله كُلَّ هَذه الـمَسافَة وعَرَّضَ نَفْسَهُ وحاشيَتَهُ لأَخْطار مُميتَة.



لَمْ تَمنَحهُ فُرْصَةً لِكَيْ يُلْقِيَ بِكُلِّ تَساؤُلاته لأَنَّها كانَتْ كَالإِعْصارِ الكاسِحِ وهِيَ تَقُصُّ عَلَيْه أَنَّ بابِلَ تَسْتَعِدُّ لاحْتِفالات زَواجِها في يَوْمِ الـخَميسِ القادِمِ، وكانَ مِنَ الأَكْرَمِ لَهُ أَنْ يَبْعَثَ إلى بابِلَ بِرَسول لِيَطَّلِعَ عَلى حَقيقَةِ الأُمورِ إذا كانَ قَدْ أَصابَهُ جُنونُ الـحُبِّ بِهَذا الشَّكْلِ لِمجَرَّد رُؤْيَتِه لِصورَتِها عَلى عَباءَةٍ يَرْتَديها شَبابُ بابِلَ وفَتَياتُها ضِمْنَ احْتِفالات الزَّواجِ، وهِيَ عَباءَةٌ تُباعُ في الدَّكاكينِ والأَسْواقِ بِعَشَرَة دَنانيرَ.

ثُمَّ عَلَتْ لَهْجَتَها سُخْرِيَةٌ قاتِلَةٌ عِنْدَما قالَتْ إِنَّهُ إذا كانَ مِنْ حَقِّ أَيِّ شابٍّ يَمْتَلِكُ هَذِه العَباءَةَ أَنْ يَتَقَدَّمَ لِطَلَبِ يَدِها، لَكانَتْ وُفودُ الشَّبابِ واقِفَةً الآنَ أَمامَ القَصْرِ.

كانَ يوشِكُ أَنْ يَقولَ لَها إِنَّهُ مَلِكٌ ولَيْسَ أَيَّ شابٍّ، لَكِنَّ الواقِعَ الثَّقيلَ الَّذي أَيْقَظَهُ تَمامًا مِنْ أَوْهامِه وهَواجِسِه، جَعَلَهُ لأَوَّل مَرَّة يَقِفُ عَلَيْه بِأَقْدامٍ ثابِتَةٍ راسِخَةٍ، وهُوَ يَعْتَذِرُ لَها عَنْ غَفْلَتِه الَّتي أَدْخَلَتْهُ في هَذا

الكابوسِ السَّخيفِ الَّذي تَصَوَّرَهُ حُلْمًا ساحِرًا.

هَبَّ واقفًا وهُوَ يَعْتَذِرُ لَها عَنِ الوَقْتِ الَّذي أَضاعَتْهُ مَعَهُ، واسْتَدارَ خارِجًا وهُوَ يَدُقُّ الأَرْضَ الـمَرْمَرِيَّةَ بخُطُواتٍ عَسْكَرِيَّةٍ صارِمَةٍ. وعِنْدَ بَوّابَةِ القَصْرِ كانَتْ مَرْجانَةُ وساعِدٌ ومُعينُ الدّينِ واقفينَ في انْتِظارِهِ عَلى رَأْسِ الـمَوْكِبِ الَّذي احْتَشَدَ في طَريقِ القَصْرِ. صاحَ فيهِمْ آمِرًا إِيّاهُمْ بالعَوْدةِ إلى أَرْضِ الكِنانَةِ، وكَأَنَّهُ قائِدٌ عَلى أُهْبَةِ خَوْضِ مَعْرَكَةٍ فاصِلَةٍ. نَظَرَ مُعينُ الدّينِ إلى مَرْجانَةَ بابْتِسامَةٍ غامِضَةٍ، فانْتَشَتْ وأَرْخَتْ عَيْنَيْها، في حينِ هُرِعَ ساعِدٌ في خِفَّةٍ لِقيادَةِ الـمَوْكِبِ في طَريقِ العَوْدَةِ.

(١٣)

جَلَسَ الـمَلِكُ عاصِمٌ في شُرْفَةِ القَصْرِ يَنْظُرُ عَبْرَ الأُفْقِ، وإلى جِوارِهِ وَزيرُهُ الَّذي كانَ يَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ بَيْنَ الحينِ والآخَرِ حَزينًا لِعَلاماتِ الهُزالِ والضَّعْفِ والصُّفْرةِ الَّتي حَطَّتْ عَلَيْهِ مَعَ يَأْسِهِ مِنْ عَوْدَةِ ابْنِهِ الَّذي أَوْشَكَتْ غَيْبَتُهُ

أَنْ تَتِمَّ ثَلاثَ سَنواتَ. وقَطَعَ الصَّمْتُ بَيْنَهُما بحوارٍ تَكَرَّرَ بحَذافيرِه في الأَشْهُرِ الأَخيرَة حيْنَ قالَ الـمَلِكُ: « لَمْ أَعُدْ قادرًا على تَحَمُّلِ مَسْئوليّات الـمَمْلَكَة بَعْدَ أَنْ تَحالَفَ الـخَوْفُ والـيَأْسُ والقَلَقُ مَعَ وَهَنِ الشَّيْخوخَة. سامَحَ اللَّهُ الشَّيْخَ إبْراهيمَ الطَّيِّبَ الَّذي رَحَلَ عَنِ الحياة بَعْدَ أَنْ قَضى عَلى آخرِ أَمَلٍ لي فيها. »

ابْتَسَمَ الوَزيرُ ابْتسامَةً واهنَةً وكَأَنَّهُ يَتَمَسَّكُ بحَبْلِ إيمانه: « قَلْبي يُحَدِّثُني بأَنَّنا سَنَراهُمْ عَلى حينِ غِرَّة، وأنا لَمْ أَفْقِدْ تَفاؤُلي بالشَّيْخِ الطَّيِّب. هَلْ نَسيتَ أَنَّه هُوَ الَّذي بَشَّرَنا بميلادِ سَيْفِ الـمُلوكِ وساعِدٍ؟»

« وهُوَ الَّذي أَضاعَهُما منْ أَيْدينا في غَمْضَة عَيْنٍ، ثُمَّ ما ذَنْبُكَ أَنْتَ أَوْ ذَنْبُ ابْنِكَ ساعد إذا كانَ ابْني قَدْ جُنَّ بِصورَة امْرَأَة مَجْهولَة عَلى عَباءَة مَشْئومَة أَحْضَرَها الشَّيْخُ الطَّيِّبُ، وكَأَنَّهُ أَحْضَرَ السُّمَّ في العَسَلِ؟»

« لا تَقُلْ هَذا.. ابْني ساعِدٌ هُوَ أَكْثَرُ منْ أَخٍ لِسَيْفِ

الـمُلوك، وكانَ منَ الـمُستَحيلِ أَنْ يَتْرُكَهُ يَرْحَلُ بِمُفْرَدِهِ، فَهُما مَعًا في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ.»

« وهَلْ كُنّا في حاجَةٍ إلى هَذهِ الضَّرّاءِ ؟ ماذا يُمْكِنُ أَنْ يَجْرِيَ لِهَذهِ الـمَمْلَكَةِ ونَحْنُ موشِكون على الرَّحيلِ دونَ أَنْ يكونَ هُناكَ مَنْ يَخْلُفُنا ؟»

« العَبْدُ في التَّفْكيرِ والرَّبُّ في التَّدْبيرِ. أَلْقِ هَمَّكَ علَيْهِ وهُوَ يَعولُكَ. وكَما رَحَلَ سَيْفُ الـمُلوكِ وساعِدٌ سَيَعودانِ سالِمَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ !»

« لَمْ نَعْرِفْ عَنْهُما شَيْئًا لِمُدَّةٍ تَصِلُ إلى ثَلاثِ سَنواتٍ.»

« ما يُدْخِلُ الطُّمَأْنينَةَ إلى قَلْبي أَنَّهُما لَمْ يَرْحَلا بِمُفْرَدِهِما، فَقَدْ ذَهَبا في قافِلَةٍ هِيَ جَيْشٌ مُصَغَّرٌ.»

« كَمْ سَمِعْنا عَنْ قَوافِلَ بَلْ وجُيوشٍ غَرِقَتْ في البَحْرِ أَوْ دَفَنَتْها رِمالُ الصَّحْراءِ. أَ نَسيتِ ماذا جَرى لِجَيْشِ قَمْبيزَ في مِصْرَ ؟»

« الحَمْدُ للَّه أَنَّنا لَمْ نَسْمَعْ شَيْئًا عَلى الإِطْلاقِ ! وإذا سَمِعْنا فَسيكونُ كُلَّ خَيْرٍ بِإِذْنِ اللَّه !»

فَجْأَةً لَمَحا صِبْيَةً وشَبابًا يُسْرِعونَ صَوْبَ القَصْرِ، ويُحْدِثونَ ضَجيجًا وصَخَبًا، فَنَهَضا واقِفَيْنِ في الشُّرْفَةِ لَعَلَّهُما يَلْتَقِطانِ بَعْضَ كَلِماتٍ هُنا وهُناكَ، لَكِنِ الرِّيحُ بَدَّدَتْها. ومَعَ ذَلِكَ تَبادَلا نَظَراتٍ عادَ إِلَيْها وَميضٌ قَديمٌ كانَ يَزْدادُ بَريقًا كُلَّما اقْتَرَبَ هَذا الـجَمْعُ الَّذي أَتى عَلى غَيْرِ ميعادٍ، وبَرَزَتْ بَعْضُ كَلِماتٍ كَأَنَّها هُتافٌ في الأُفُقِ، يُرَدِّدُ اسْمًا كَأَنَّهُ اسْمُ سَيْفِ الـمُلوكِ. وفي أَعْقابِ الصِّبْيَةِ والشَّبابِ، ظَهَرَتْ سِلْسِلَةٌ مِنَ الـجِمالِ والـخُيولِ .

اشْتَدَّتْ دَقّاتُ قَلْبَيِ الـمَلِكِ والوَزيرِ، وهُما يَتَبادَلانِ نَظَراتٍ عاجِزَةً عَنْ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلى كَلِماتٍ أَوْ حَتّى أَفْكارٍ، إِلى أَنْ بَلَغَ الصِّبْيَةُ والشَّبابُ الـمُهَرْوِلونَ حَـديقَـةَ القَصْرِ و هُمْ يُعْلِنونَ في نَشْوَةٍ بالِغَةٍ وُصولَ الـمَلِكِ سَيْفِ

الـمُلوكِ والوَزيرِ ساعِدٍ سالِـمَيْنِ.

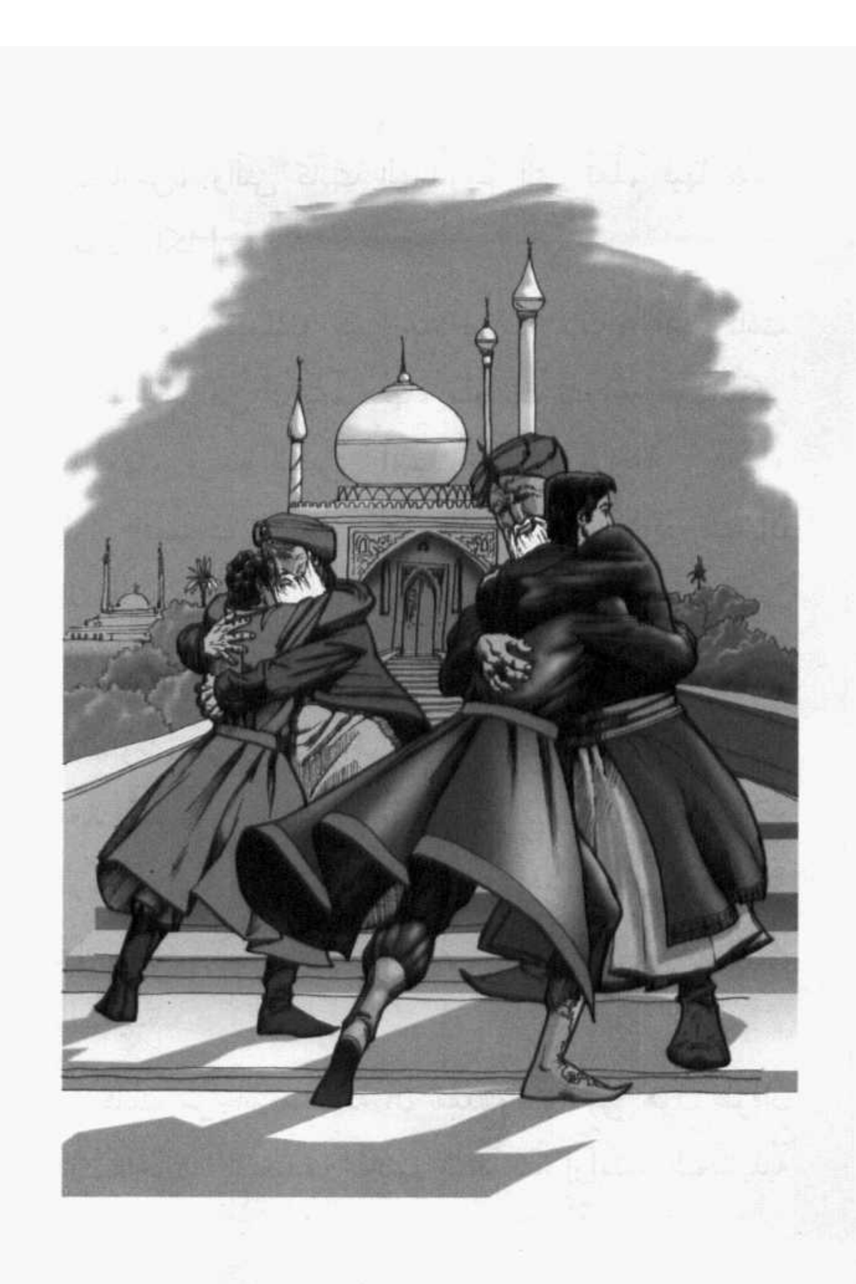
وسَرْعانَ ما تَحَوَّلَت النَّشْوَةُ إلى رَقَصاتٍ مَعَ دَقّاتِ الأَقْدامِ عَلى الأَرْضِ وتَصْفيقِ الأَكُفِّ الـمُلْتَهِبَةِ. لَمْ يَتَمالَك الـمَلِكُ والوَزيرُ أَنْ يَكْتُما مَشاعِرَهُما الَّتي جَرَفَتْهُما بِلا هَوادَةٍ فَتَبادَلا الأَحْضانَ والقُبُلاتِ وَسَطَ الدُّموعِ الـمُنْهَمِرَةِ مِنْ عُيونِهِما الَّتي أَصابَها الكَلَلُ في لَيالي السُّهْدِ.

اقْتَرَبَت الـجِمالُ والـخُيولُ لِتَنْشَقَّ طَوابيرُها، وتَظْهَرَ مِنْ وَسَطِها عَرَبَةٌ مُذَهَّبَةٌ تَجُرُّها خُيولٌ مُطَهَّمَةٌ مُنْطَلِقَةٌ كَالسَّهْمِ صَوْبَ الشُّرْفَةِ الـمَـلَكِيَّةِ.

عَجَزَ الـمَلِكُ والوَزيرُ عَنْ تَصْديقِ ما يَدورُ أَمامَهُما كَحُلْمٍ لا مَثيلَ لَهُ في سِحْرِهِ. وتَوَقَّفَت العَرَبَةُ لِيَهْبِطَ مِنْها سَيْفُ الـمُلوكِ كَأَنَّهُ قائِدٌ عَسْكَرِيٌّ عائِدٌ مِنْ مَعْرَكَةٍ، ثُمَّ هَبَطَ ساعِدٌ بِالـخِفَّةِ والصَّلابَةِ نَفْسَيْهِما، وكَذَلِكَ الشَّيْخُ مُعينُ الدّينِ الَّذي أَمْسَكَ بِيَدِ مَرْجانَةَ وهِيَ تَقْفِزُ مِنْ عَلى

سُلَّمِ العَرَبَةِ. وبَدا الـمَلِكُ عاصِمٌ والوَزيرُ فارِسٌ شابَّيْنِ يافِعَيْنِ يَقْفِزانِ هابِطَيْنِ عَلى الدَّرَجاتِ الـمَرْمَرِيَّةِ الَّتي الْتَقَيا عِنْدَ مُنْتَصَفِها بِوَلَدَيْهِما الصّاعِدَيْنِ إِلَيْهِما، لِيَغْرَقَ أَرْبَعَتُهُمْ في دُوّامَةٍ مِنَ الأَحْضانِ والقُبُلاتِ والدُّموعِ والأَنْفاسِ اللاهِثَةِ، في حينِ وَقَفَتْ مَرْجانَةُ والشَّيْخُ مُعينُ الدّينِ خَلْفَهُمْ والدُّموعُ تَنْهَمِرُ عَلى خُدودِهِما دونَ أَنْ يُفَكِّرا في مَسْحِها.

صَعِدَ الأَرْبَعَةُ حَتّى بَلَغوا الشُّرْفَةَ وخَلْفَهُمْ وَقَفَتْ مَرْجانَةُ ومُعينُ الدّينِ، وهُمْ يُلَوِّحونَ بِأَيْديهِمْ لِتَحِيَّةِ الجَماهيرِ الـمُحْتَشِدَةِ. و وَسْطَ هَذِهِ العَواطِفِ الـجَيّاشَةِ الـجامِحَةِ، سَأَلَ الـمَلِكُ ابْنَهُ عَمّا إِذا كانَ قَدْ أَحْضَرَ مَعَهُ عَروسَهُ، فَأَجابَهُ بِالإيجابِ. ونَظَرَ حَوْلَهُ ثُمَّ اسْتَدارَ لِيَرى مَرْجانَةَ خَلْفَهُ، فَأَمْسَكَ بِيَدِها وجَذَبَها لِتَقِفَ أَمامَ أَبيهِ، وهُوَ يُقَدِّمُها إِلَيْهِ عَروسًا لَهُ، ويَعِدُهُ بِأَنْ يَشْرَحَ لَهُ كُلَّ تَفاصيلِ الرِّحْلَةِ الَّتي كانَتْ مَعَهُ فيها نِعَمُ الـمَلاكُ



الحَارِسُ، والَّتي كانَتِ المَدْرَسَةَ الَّتي تَعَلَّمَ فيها كَيْفَ يكونُ مَلِكًا !

لَمْ يَعْبَإِ المَلِكُ كَثيرًا بالإنْصات لابْنِه، فَقَدْ كانَتْ فَرْحَتُهُ أَكْبَر مِنْ أَنْ يَسْتَوْعِبَها، فَأَمْسَكَ بِذراعه دونَ تَفْكيرٍ ورَفَعَها، وبيَده اليُسْرى أَمْسَكَ بِذراعِ مَرْجانَةَ ورَفَعَها، فَرانَ الصَّمْتُ المُطْبِقُ عَلى الجَماهيرِ عِنْدَما أَدْرَكَتْ أَنَّ المَلِكَ يوشِكُ أَنْ يُعْلِنَ أَمْرًا مَلَكِيًّا.

وبالفعْلِ دَوّى صَوْتُهُ مُعْلِنًا عَقْدَ زَواجِ المَلِك سَيْفِ المُلوك عَلى الأَميرَة مَرْجانَةَ أَميرَة الحُسْنِ والجَمال، بَعْدَ أُسْبوعٍ، عَلى أَنْ تُقامَ الأَفْراحُ واللَّيالي الملاحُ أَرْبَعينَ لَيْلَةً إلا لَيْلَةً، وتُوزَّعَ الأَقْمِشَةُ والأَنْسِجَةُ والمَلابِسُ الجَميلَةُ مَجّانًا عَلى الفُقَراء، في هَذِهِ الأَيّامِ السَّعيدَة.

كانَتْ مَرْجانَةُ موشِكَةً أَنْ تفْقِدَ وَعْيَها مِنْ هَوْلِ طوفان المُفاجآتِ السَّعيدَةِ، لَكِنَّها شَحَذَتْ إرادَتَها الحَديديَّةَ

وتَماسكَتْ حتّى انْسَحَبوا منَ الشُّرْفَةِ إلى داخلِ القَصْرِ الذَّي بَدَتْ جُدْرانُهُ الـمَرْمَرِيَّةُ وأَعْمِدَتُهُ الذَّهَبِيَّةُ وكَأَنَّها موشِكَةٌ أَنْ تَرْقُصَ هيَ أَيْضًا، تَجاوُبًا مَعَ الـجَماهيرِ الَّتي ظَلَّتْ تَرْقُصُ وتُغَنّي وتَدُقُّ الدُّفوفَ حَوْلَ القَصْرِ حتّى مَطْلَعِ الفَجْرِ الـجَديدِ .

